

الحكماء السبعة

- الجزء الثاني -

بقلم/د. عبد الغفار مكاوي

الحكماء السبعة، من أعظاهم العصر القديم هذا الاسم ولم تأخذه
منهم العصور التالية، يقفون اليوم على خشبة المسرح في ثيابهم
الاغريقية. لم يحمر وجهك، أيها الروماني في ثوبك الأبيض، لدى

ظهور هؤلاء الرجال المشاهير؟

نحن وحدنا نشعر بالخجل، أما الأثينيون فلم يشعروا به

اذ كان للمسرح عندهم مجلس رأي أو شورى .

لكل فعل عندنا مكانه الخاص به :

فمجلس الشعب يشغل ميدان مارس،

ومجلس الشيوخ يحتل المبنى الحكومي،

والقضاء مقره في السوق والمحكمة .

لكن في أثينا وبلاد الإغريق مكان يتجمع فيه الناس للتشاور في

الرأي .

وهذا المكان أهده الترف المتأخر لمدينتنا .
فقد أقام لنا ناظر الشرطة خشبة المسرح ،
وعلى وجه السرعة أعلى بناءها بغير أحجار ثقيلة ،
مورينا وجاليوس فعلا هذا كما هو معروف . .
ان السادة العظام ، الذين لم يتهيبوا النفقات الباهظة ، قد اعتقدوا
أنهم سيخلدون أسماؤهم بإقامة مبنى عال
مؤسس على الأحجار ، يتيح إلى الأبد فرصة التمثيل المسرحي ،
وهكذا ارتفع هذا البيت الهائل المقسم إلى أدوار وطوابق ،
بعدها تنافس في الانفاق عليه بومبيوس وبالبوس وأغسطس .
لكن لماذا أثرثر بهذا الكلام ؟
إني لم أظهر أمامكم لأحكي عمن أقام المسرح والسوق والأسوار ، ،
بل لا قدم لكم رجالا أجلاء أثنت عليهم الآلهة .
ولكي أعلن عن مقصدهم .
لقد تعودوا على النطق بعباراتهم
فكل حكيم منهم يلقي حكمته الأثرية .
إنكم تعرفون هذه الحكم والعبارات لكن حين تضمحل ذكرى
الأخبار القديمة
عندئذ يظهر هذا الشخص المرح
لكي يشرح الحكم التي غابت عني
الشخص المرح : في دلفى كما يقال ،
كتب صولون الأثيني : اعرف نفسك (٣٠) .
غير أن البعض يزعم أن قائل هذه الكلمة هو خليون .
يا خليون الاسبرطي . ما زالت الآراء كذلك مختلفة
حول هذه العبارة التي تنسب اليك :
«على كل انسان أن يتبصر بنهاية الحياة»

فهل أنت الذي قلتها، عندما أوصيت أن ينتظر المرء
نهاية العمر الطويل (قبل أن يحكم على أحد بالسعادة أو
الشقاء)؟ (٣١)

كذلك يزعم الكثيرون أن صولون
قد قال هذه العبارة يوما للملك كرويزوس .
أما بيتاكوس ، من جزيرة لسبوس ،
فيروى عنه أنه قال : إعرف اللحظة
وأنه نبه إلى معرفة الوقت الملائم .
وأما بياس المنسوب إلى مدينة برينيه فقد قال :
معظم الناس أشرار ،
وعليك أن تفهم من قوله أن الحمقى في رأيه هم الأشرار
ويقول برياندر من مدينة كورنثة :
المران هو كل شيء ،

وهو يقصد أن التروي يحقق للمرء كل ما يريد .
ويعلم كليوبولس من لندوس أن الحدّ هو الأفضل .
أما طاليس فيحذر من أن تضمن غيرك .

فتجلب الضرر على نفسك .
وطبيعي أن يسخط مقترض المال على هذا التحذير .
لقد قلت ما عندي ، وسأنسحب الآن ،
لكي يتقدم المشرّع صولون .

صولون : ها أنذا أخطو على هذه الخشبة على طريقة الاغريق ،

أنا صولون الذي وهبه المجد
أول جائزة منحت للحكماء السبعة .
غير أن المجد شيء يختلف عن صرامة الحكم الصحيح .
ولهذا لا أحب أن أكون أول الحكماء .

بل أريد أن يكون واحدا منهم ،
لأن المساواة لا تطبق التقسيم إلى مراتب ودرجات .
وبحق نصح اله دلفى ذلك (الشاب) الذي سأل هذا السؤال
الطائش :

من هو أول الحكماء ؟ نصحه أن يكتب باقة أسماء الحكماء
على هيئة دائرة ، حتى لا يكون منهم أول ولا أخير .
ولهذا أتقدم من دائرتهم ، أنا صولون ،
حتى أبلغ كل الناس ما قلته يوما للملك كرويزوس :
أدعو الانسان لأن ينظر في خاتمة حياته .
وليحذر كل منهم أن يتكلم عن إنسان فيقول
هذا تعس ، أو ذاك سعيد ،

لأن السعادة والتعاسة يحوطهما الغموض على الدوام .
الأمر كذلك ، فاسمحوا لي أن أثبته باختصار .

كان الملك كرويزوس ، لا بل طاغية ليديا ،
أحد هؤلاء السعداء . وكان يملك الكنوز التي لا حد لها . وبني
للآلهة معابد رفع أسوارها الذهبية .
ودعاني الملك اليه فأطعت .

حتى يتسنى لليدين أن يجلس على عرشهم أفضل الملوك .
سألني الملك إن كنت أعرف إنسانا سعيدا ،
وسميت له تيلوس ، ذلك المواطن النبيل ،
الذي سقط قتيلا وهو يدافع عن وطنه .
وبدا له هذا المواطن حقيراً فأعاد السؤال ،
وخطر على بالي أجلاوس الذي لم يغادر حدود حقله
مرة واحدة في حياته .
ضحك الملك وقال : أين أكون إذا

وأنا الموصوف بأني السعيد الوحيد على ظهر الأرض؟
قلت له: على المرء أن ينتظر نهاية الحياة
ثم يصدر الحكم بأنه سعيد
إذا دامت له السعادة.
كانت العبارة قاسية على الملك،
ولكنني انصرفت من عنده . .
وكان أن أعلن الحرب على الفرس ، ،
ودخل المعركة وهزم .
مثل أمام الملك مقيدا بالأغلال ،
وعرف أنه سيموت فوق المحرقة ،
اذ كان اللهب يملأ المكان
ويرفع ألسنة الدخان المتوهج إلى السماء .
وارتفعت صيحة كرويزوس بعد فوات الأوان
فصرخ بصوت رهيب : « صولون ! صولون ! صولون !
يا من صدقت نبوءتك بحق ! »
وحرّك النداء قلب قورش ، فأمر بإطفاء النار
ورفعه عن المحرقة . وانهمر المطر من السحب .
فقهر الحريق ، وتقدمت كتيبة من الجنود
فأمسكت بكرويزوس وقادته الى الملك .
سأله عن صولون وعن سبب هتافه باسمه ،
فأخذ يروي عليه تجربته بالتفصيل ،
وأشفق عليه الملك وأثنى على صولون
الذي أدرك قوة القدر فأحسن الإدراك .
واصبح كرويزوس منذ ذلك الحين صديق قورش
الذي أمر بتطويق عنقه بقلادة ذهبية

وجعله يقضي بقية عمره بجانبه .
اما أنا فشهادة الملكين مديح وثناء عليّ ،
اذ قال كلاهما : معك الحق .
وعلى كل منكم أن ينتبه لما قلت لأحدهما .
لقد انتهيت مما جئت لأجله .
أنظروا ! ها هو خيلون قادم
فوداعا ، وصفقوا .

خيلون : يؤلني فخذاي من الجلوس كما تؤلني من النظر عيناى ،
وقد انتظرت حتى انصرف صولون .
آه ما أقل ما يقوله «الأتىكي» في خطبة طويلة .
فلقد ألقى عبارته الوحيدة في أكثر من مائة بيت . .
ها هو ما يزال يتلفت نحوي ، لكنه قد ذهب لحاله .
أنا خليون الاسرطي الذي يتقدم منكم الآن
أجأ للأيجاز المعروف عنا وأوصيكم بحكمتي :
«إعرف نفسك» <http://Archivebeta.Sakh>
وهي الحكمة المنقوشة على عمود معبد دلفي
إنه لجهد شاق - وإن كان يجلب أجهل الجزاء -
أن تعرف ما تقدر عليه وما لا تقدر ،
وأن تفحص في الليل والنهار ما عملته وما لم تعمله
وتدقق في أدق تفاصيله .
إن جميع الواجبات ، من شرف وحياء وصمود ،
كلها هنا (في هذه الحكمة) ، ومعها كل المجد الذي أسكت عنه .
لقد تكلمت وقلت ما عندي ، فوداعا وتفكروا فيه .
لن أنتظر التصفيق ! . .

كليوبوليس : أنا كليوبولوس ، اصلي من جزيرة صغيرة ،

ومع ذلك فقد عثرت على حكمة كبيرة (يشيد بذكرها الناس) :
«الحَدُّ هو الأفضل»

تلك الحكمة التي تنسب إليّ.

ترجمها أنت، يا من تجلس بالقرب من الخشبة
على أول درجات من الدرجات الأربع عشرة
أليس الحدُّ هو الأفضل؟

قل رأيك . هل أطرقت برأسك؟ شكرا لك .

سأتابع قولِي بالترتيب . فقدما قال شاعركم تيرينس في هذا المكان :
«لا تبالغ في شيء» . وكذلك قال أحد شعرائنا : «لا تسرف على
نفسك»

والقولان من الروماني والاغريقي مرتبطان بما نحن بصدده :
في أثناء كلامك أو صمتك ، في يقظتك ونومك .
يصدق هذا الحدُّ ،

في الاحسان إلى الناس وتقدير الشكر
في العمل وفي الدرس وفي الايذاء أو الضرر ،
في كل أمور حياتك يجب عليك
أن تلتزم الحدَّ .

ها أنذا أنهيت حديثي ، ولهذا أذهب .

فارعوا الحدَّ ، إرعووا الحدَّ .

ها هو طالس يتقدم منكم . .

طاليس : اسمي طاليس . مسقط رأسي ملطية .

علّمت ، كما علّم بندار ، أن الماء

هو أصل جميع الأشياء .

ووعاء البخور الذهبي ذو القوائم الثلاثة^(٣٢)

أحضره اليّ الصيادون الذين سحبوه بشباكهم من البحر .

وساقتهم إلى نبوءة أبوللو
الذي جعل هذا الوعاء من نصيب أحكم الحكماء .
لم اشأ أن أحتفظ به ، فرددته إليهم
لكي يحملوه الى غيري ممن اعتقدت أنهم أولى به .
هكذا دار الوعاء دورته
وأرسل إلى الحكماء السبعة جميعا ،
ثم أعاده الصيادون إلى بعد أن أرسله الحكماء
فأخذته منهم ونذرته للاله أبوللو .
واذا كان أبوللو قد أمر باختيار حكيم
(ليكون الوعاء من نصيبه)
فمن الحق أن يسري هذا الأمر على إله
لا على إنسان .

هذا هو أنا . وقد ظهرت على المسرح
مثلا ظهر الاثنان اللذان سبقاني
لأنقل اليكم حكمتي من هذا المكان .
ربما تثير السخط عليها ، لكنها لن تسوء الأذكياء
الذين أنضجتهم الخبرة وحنكتهم التجربة .
لقد قلت باليونانية ما ترجمته :

خذ قرضا من غيرك بضمان ، وبذلك تؤذي نفسك !
يمكنني أن أضرب أكثر من ألف مثل
لأبين ندم المواطن على ما فعل .
لكني لن أذكر أحدا باسمه
وسأترك لكم الامر لتتدبروه بأنفسكم
وتعرفوا مدى الألم والأذى
الذي جلبه الدين بالضمان على أصحابه

ومع ذلك يبقى هذا العمل حبيبا الى نفوس الصبية الخليعين . .
واذا فليصفق لي جزء منكم ،
وليصفر الجزء الباقي سخطا واستهجانا .

بياس : أنا بياس من بريئه الذي قال : «أغلب الناس أشرار» ،

وودت لو لم أقل هذه العبارة أبدا
(فقول) الحقيقة يولد الكراهية .
وقد وصفت بالشر البرابرة والحمقى
الذين يزدرون الحق والقانون والحرمات المقدسة .
أما الشعب الذي يحوط هذا المكان ،
فهو من الأخيار الخالصين .

ان الاشرار لا وجود لهم الا في بلاد الأعداء ،
هذا ما قصدت قوله فصدقوني .
لكن ما أحد يرضى لنفسه أن يكون قاضيا سيئا
بحيث لا ينضم إلى زمرة الأخيار الطيبين ،
سواء أكان طيبا بحق
أم أراد أن يحسب من الطيبين .

بهذا تكون الكلمة السيئة عن الشرير
قد كشفت عن معناها

وبهذا انسحب من المسرح ،
فودعا ، وصفقوا ،

يا من أغلبكم أخيار . !

بيتاكوس : أنا بيتاكوس ، أصلي من ميتيلينه في لسبوس ،

ولقد قلت : اعرف قيمة اللحظة .

فاللحظة تدعو وتنبه (الغافل) الى معرفة الزمن
ولهذا يقول الرومان : تعال في الوقت المناسب

كذلك أوصي شاعركم الهزلي «تيرنس»
بإدراك أهمية هذا الوقت المناسب
عندما حضر العبد درومو لسيدته انتيفيلا
في أشد اللحظات حرجا ودقة(*)
تفكروا جميعا في المصاعب التي يتعرض لها
ذلك الذي لا يقدر قيمة الفرصة المواتية!
ان الزمن ينهني الا اثقل بالقول عليكم.
فصفقوا!

بيرياندر

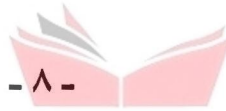
: وها أنذا أظهر أمامكم،

بيرياندر الذي ولد في كورنثة،
والذي أعلن أن كل شيء يرجع للمران.
وأنا أؤيد قول القائل
إن ما يحسن المرء أداؤه

إنما يقوم على التأمل
ولا ينجح في عمله
الا من يتدبره قبل الاقدام عليه.

والشاعر الهزلي تيرنس يعلمنا
أن ننظر في فرص الحظ وسوء الحظ.
وكل من يريد أن يستأجر بيتا،
أو يعلن حربا، أو يعقد صلحا وسلاما،
أو يرسم خطة شيء عظيم أو حقير،
فعليه أن يتفكر ويدبر
سيرين الكسل عليك اذا اقبلت على عمل
لم تتدبره قبل شروعه فيه.
ولا شيء أولى بالحرص والعناية

- من التفكير في خطورة جديدة
ان الغافلين يوجههم الحظ لا الذكاء،
ومع ذلك فما أنا ذا أراجع جانباً.
صفقوا. وتدبروا الأمر من أجل بلدكم
المؤرخ : هكذا انتهت اللعبة المسرحية . .
الحكماء : كانت لعبة أطفال وتلاميذ مدارس . . الحمد لرب الحكمة اذ انتهت
أدوارنا . .
المؤرخ : ماذا تقولون؟ لم ينته دوركم بعد . فالحكاية ما تزال على نول الأيام،
وخيوط أخرى تغزلها في ثوبكم الأجيال . .
الحكماء : ألا تنتظر حتى نغير ثيابنا . .
المؤرخ : وأصفق لكم ثم أنسحب لاستراحة قصيرة . . .



- المؤرخ : وتمر الأيام وتأتي الأجيال بعد الأجيال فيتغير كل شيء . هذا قانون لا
يسلم منه حي أو جماد . فكل ما في الوجود يتبدل ويتحول ويصير الى
ضده .
هذا ما سيقوله حكيم جاء بعدكم وأشاد بذكركم واسمه هيرا
قليطس . حتى قصتكم يا حكمائي السبعة لم تسلم من التغير
والتحول . . . و
الحكماء : قصتنا . . هذا جائز . . لكن حكمتنا؟ . .
صولون : اعرف نفسك! الزم حدك! لا تتطرق! لا لا . . لا يمكن
أن تتغير . .
الحكماء : هل يمكن أن ينقلب الخير إلى الشر، أو يرضى الناس بتقديس الخسة
والغدور؟

- المؤرخ : معذرة يا حكماء .. حكمتكم فوق الشك ولكن ..
- الحكماء : ماذا تعني؟
- المؤرخ : أعني أن الحال تحول والقيم تغير سَلَمَها الراسخ وتبدل ..
- الحكماء : أوضح قولك ..
- المؤرخ : بل هو قول التاريخ وحكمه .. صار العصر غير العصر وتبدلت العقيدة غير العقيدة . ودخلت بلادكم في دين جديد هو دين المسيح ..
- الحكماء : المسيح؟
- المؤرخ : أجل، وهو عند المؤمنين به ابن الله الذي افتدى البشر ليكفر عن خطاياهم ..
- الحكماء : ابن زيوس؟ أم أبوللو؟
- المؤرخ : بل ابن الواحد والثالثوث .. جاء الى الأرض بميلاد معجز، جاء على صورة بشر يحيا في الزمن ويأكل مثل البشر ويشرب، وأخيرا يصلب ثم يقوم ويرفع ..
- الحكماء : لم نره، لم نسمع عنه ..
- المؤرخ : بل تروي القصة أنكم تنبأتم به ..
- الحكماء : نحن الحكماء تنبأنا به ..
- المؤرخ : والنبوءة صارت هي حكمتكم الوحيدة . وها هو ذا واحد من آباء الكنيسة الذين علّموا في مصر، وهو كليمنس السكندري (٣٣)، يسميكم في حوالي سنة مائتين بعد ميلاد المسيح بالأنبياء . لقد راح هذا الأب المسيحي يفسر أقوالكم تفسيراً رمزياً يضع عليها ثوبا إلهياً . فعبارتكم «اعرف نفسك» صارت : اعرف سبب ولادتك، وصورة من أنت، ماذا تملك، ماذا تصنع، واعرف صلتك بالله وقربك منه».
- الحكماء : غريب .. شيء غريب ..

المؤرخ

: الأغرب من هذا أن أسماءكم المشهورة بدأت تلتف في ضباب الأفق البعيد ومعها عالمكم القديم كله . لم يبق من هذه الأسماء الا أصدقاء غامضة ، واختلطت بأسماء أخرى ظهر أصحابها قبلكم أو بعدكم . فالكتاب المتدين لا تهمه الآن الا حكمة واحدة ولا يعنيه الا حدث تاريخي واحد^(٣٤) . انه لا يعرف حكايتكم ولا يذكر أقوالكم ولا يرى بأسا من أن يدخل في زمركم شاعرا كهوميروس أو فيلسوفا كافلاطون وتلميذه أرسطو أو مؤرخا كتوكيديدس الذي سجل وقائع الحرب الاهلية التي وقعت بعد عهدكم بين أثينا واسبرطة ، أو مؤرخا متأخرا مثل بلوتارك - بل انه لا يجد حرجا في أن يجعل شاعر الملهاة ميناندر واحدا منكم . .

الحكماء

المؤرخ

: هل يمكن أن ينسانا العالم كل النسيان؟ أولا يذكر أحدا منا؟
: بل ما زال الكاتب يرفع ذكركم وان كان لا يعرف شيئا عنكم . مع ذلك لا يصح أن نجحد فضله في احياء ذكراكم ، والا يحياء الى الفنانين برسم صوركم ونقوشكم على الأيقونات وجدران الكنائس الأرثوذكسية في بلدكم ، استمعوا الآن . لقد أصبحتم أنبياء أو متنبئين ومنجمين . .

الحكماء

المؤرخ

الحكماء

: ما أشقانا! . . متنبئين ومنجمين؟! . .
: وجئتم الى معبد أبوللو في أثينا لتسألوه . .
: نبئنا أيها النبي أبوللو . . قل لنا يا ساطع الضوء : ماذا سيكون حال بيتك هذا ولن سيثول من بعدك؟

المؤرخ

أبوللو

: ويرد عليكم اله النور والفن على لسان العراف فيقول :
: سيكون بيتا للفضيلة والطاعة والنظام . اني أبشر بالثالثوث ، بالرب الحاكم في الأعالي ، الذي تحولت كلمته الخالدة الى ثمرة جسدية في رحم عذراء طاهرة ، لأن كلمة الرب ستنتطق كصاعقة من نار في العالم كله وتقدمه للرب هدية . أما هذه العذراء فاسمها مريم .

الحكماء

: انك تكذب يا أبوللو..

أبوللو

: بل أخبر بالحق وبالصدق، وأقسم بمن يمكس بزمامي ويهز أعنة صدري ..

الحكماء

: ولم نصدقه بطبيعة الحال ..

المؤرخ

: بل صدقتم ومضيتم في نبوءتكم بالنور الطالع والرب الآتي من علياء سلالته، يفدي البشرية في صورة بشر ثم يقوم ويرتفع الى عرش أبيه ..

الحكماء

: نحن نفعل هذا؟!!

المؤرخ

: وتبشرون بالوعود والخلاص على لسان بياس وصولون وخيلون .. ويكون بياس أول المتكلمين فيقول:

بياس

: مستحيل أن أقول ما أقوله لغير المريدين والمؤمنين الا أن تعوا بعقولكم ما أنطق به .. هذا الرب هو النور الروحاني الطالع من نور الروح القدس . بالنور وبالأنفاس تلقي الوحدة من روحه . كل شيء منه وعن طريقه . خصباً نزل الى الطبيعة الخصبة فخلق الماء الخصب بالماء الخصب ..

صولون

: وهو الذي جاء قادماً من أعالي السموات، أقوى من نار اللهب الأبدي الخالد . ترتعش أمامه السماء وترتجف الأرض والبحر والمحيط الذي تسبح فيه الأرواح السفلية . وهو نفسه أبوه المثلث البركات .

خيلون

: يوماً سيجيء الى هذه الأرض المتصدعة وبلا خطيئة يتجسد .. وبنعمة الألوهية ومشيئتها سيرفع الفساد ويخلص من الآلام التي لا تداوى ولا تشفى .

ولسوف يصيبه حسد الشعب ويعلق على الصليب كأنه استحق الموت عقاباً له، ثم يتحمل كل شيء في هدوء .

توكيديديس : ان طبيعة الخلق الالهي لا تعرف الكلل . والرب يحول كلمته الى

وجود .

ميناندر

: اخش الرب وآمن به ، لكن لا تسأل من هو ولا كيف هو . وسواء
أدرت وجوده ام لم تدركه ، فاخشع لهذا الوجود واعرفه . لأن من
يحاول معرفة الله انسان خلا قلبه من التقوى والايمان^(٣٥) .

أفلاطون

: الشيخ شاب والشاب شيخ ، الأب هو الابن والابن هو الأب ،
الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، الذي بلا جسد متجسد ، والأرض
ولدت خالق السماء . .

الحكماء

: نحن نقول هذا كله؟

المؤرخ

: والادهى من هذا أن تقولوه وأكثر منه على لسان أشخاص ولدوا بعد
أن شبعتم موتا . .

الحكماء

: أي أشخاص لم نعرفهم أبدا . .

المؤرخ

: بل عرفتموهم وقابلتموهم أيضا . .

الحكماء

: ماذا تقول؟ كيف نعرفهم أو نقابلهم . .

المؤرخ

: هذا ما يقوله الكتاب الورعون الذين دونوا المخطوطات التي وصلتنا
عنكم في عصر متأخر^(٣٦) لقد جعلوكم تقابلون فيلسوفا سموه
ديوجينيس وتدخلون بيته القائم في اثينا الذهبية .
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

الحكماء

: حقا؟ نحن الحكماء السبعة؟

المؤرخ

: ولكن بأسماء أخرى بعد أن نسي أولئك الكتاب أسماءكم ، أتدرون
من هم الحكماء السبعة الذين دخلوا بيت ديوجينيس فأجلسهم
ورحب بهم وأخذ يسمع حديثهم عن الهندسة والفلك والتنجيم
وطبيعة الأرض وغيرها من العلوم والفنون؟ . .

الحكماء

: ألم تقل انهم الحكماء السبعة؟

المؤرخ

: نعم . ولكن بأسماء أخرى لم يراع فيها اختيار ولا ترتيب : بلوتارك
وآريس . .

الحكماء

: آريس؟ حتى اله الحرب والشقاق أصبح واحدا منا؟

المؤرخ : نعم نعم . وكذلك هيرميس مثلث العظمة . ولكنهم نسوا اسمه الحقيقي فسموه «دون» مثلث العظمة .

الحكماء : مع أنا لم نعرف هيرميس هذا ولا . . ماذا قلت؟

المؤرخ : بالطبع ولا كليوميديس . .

كليوبوليس : حتى اسمي أخطاوا فيه؟ . .

المؤرخ : وأدخلوا فيكم أفلاطون وأرسطو وهوميروس . .

الحكماء : حتى شاعرنا الأكبر؟ .

المؤرخ : أجل أجل . . وبعد أن فرغوا من حديثهم وقف ديوجينيس الشيخ -

الذي لا نعرف ان كان هو ديوجينيس الأبولوني ام الكلبي . .
وخطب فيهم قائلاً :

«أيها الرجال الأجلاء من فلاسفة الاغريق ومعلميهم الأوائل . . اني أسألكم : ماذا تهىء عناية السماء لأجيال الاغريق في أواخر الزمان؟
لاني اعلم أن أبناء الاغريق قد استبد بهم الحمق فراحوا يهيمون
أذلاء بين الأصنام ويخوضون في كل رجس ، بعد أن تخلوا عن خالق
كل شيء ، أذكروا لي علامة تدل على أنكم أعظم العظماء وأكبر
المنجمين والحكماء . اني أتوسل اليكم أن تخبروني بها . ولم يكده
ديوجينيس ينهي خطبته حتى فتح بلوتارك فمه وقال :

بلوتارك : ذات يوم سيجيء من لا بداية له وابن من لا بداية له ، سيجيء

الكلمة الى هذه الأرض الممزقة ويسكن جسد عذراء بريئة اسمها
مريم . وسوف يتعرض لحسد الشعب الجاحد ويعلق على الصليب .
وأخيرا يقوم من بين الموتى وينقذ العالم بأسره . أما اسمه فهو يسوع ،
أي الطبيب . .

المؤرخ : ثم تكلم أريس . .

الحكماء : اله الحرب؟ وهل لديه ما يقوله . .

المؤرخ : نعم نعم . أليس غريبا أن يتحدث عن الحب والخلاص والسلام

فيقول:-

آريس : سيأتي الابن من الابن ويطلب وهو ابن الابن ، أن يسكن رحم أم ويولد لها كاملا في صورة انسان ، وسوف ينقذ جميع الأجيال من آدم الى شخصه ذاته ويقدمهم هدية لأبيه . .

المؤرخ : وتكلم دون مثلث العظمة فقال :
مثلث العظمة : الرب عقل وكلمة وروح . والكلمة الذي تجسد بإدارة الأب سينقذ كل انسان من الضلال المريع ويقضي على الشيطان ويمنح شعبه العمداء طوبى لمن يستجيب له . .

المؤرخ : ثم قال كليوميديس الذي يحمل بعض حروف اسمك يا كليوبوليس :

كليوميديس : ان الذي بسط السماء وأقام الأرض على المياه سيولد بعد ذلك من مريم الطاهرة . وسيأخذ منها الجسد ويصبح انسانا كاملا وخالق الكون . وسيستحق الموت ويقضي عليه الشيطان ويبه للعالم الحياة . .

المؤرخ : ثم يأتي دور أفلاطون الشهير فيرتدي ثياب مسيحي ويقول :
أفلاطون : كان الله على الدوام وهو كائن وسوف يكون بغير بداية ولا نهاية . أما ابنه المسيح فسوف يولد من مريم العذراء وأنا مؤمن به . وأنت أيتها الشمس ستريني من جديد تحت ظل ملك تقي . أما معبد أبوللو فسوف يهدمه وسوف يطلق على هذا الأخير اسم أمه مريم .

المؤرخ : ثم يحى دور المعلم الأول فيواصل كلام أستاذه ويقول :
أرسطو : في تلك الأيام سيسطع نور الثالوث الاقدس فوق جميع الخلق ، والأصنام التي صنعتها يد الانسان ، تلك الأصنام الخرساء الجامدة التي يؤلفها شعب الإغريق ، سيقضي عليها قضاء مبرما . أما اسمه فسوف يعظمه ملوك الارض كلها وسادتها الأقوياء . وسوف يعين اثني عشر قاضيا وسبعين معلما ليحكموا الأرض جميعا ويهدوها . أما

هو فسيفس بعد عذابه وقيامته ويجلس الى يمين الاب ويعود مرة اخرى ليقاضي الأحياء والأموات . وسيعطي كل انسان حسب عمله . .

المؤرخ : وأخيرا يأتي دور الشاعر هوميروس فيقول :

هوميروس : يوما سيجيء الينا سيد الأرض والسماء ويظهر على هيئة جسد بلا خطيئة . وسأخذ صورته البشرية من عذراء عبرانية . سيسمونه الغفران والفرح . وسيصلبه شعب العبرانيين الكافر . طوبى لمن يستمعون اليه وويل لمن لا يستمعون .

المؤرخ : لما سمع ديوجينيس الجليل هذا الكلام تعجب من نبوءات الحكماء السبعة . ثم دونها في كتابه عن الطبيعة ووضعها في معبد أبوللو ، ومنذ أن سادت بيننا ديانة الخلاص والرحمة حكمنا قسطنطين العظيم الذي كان أول الملوك المسيحيين . وعندما زار الملك أثينا أبدى رغبته في هدم معبد أبوللو وبناء معبد آخر لأم الاله . غير أنه عثر على الأوراق التي دونت عليها نبوءات الحكماء السبعة . وقرأها الملك التقي وتعجب تعجبا شديدا ، لكنه أخذها معه على طريق عودته الى ملكة المدن لكي تثبت ايماننا وتمحو الشر وتقضي عليه . .

- ٩ -

المؤرخ : وتتركون بيزنطة يا حكمائي السبعة وترجعون مرة أخرى الى الشرق وتلتقون في بلاط ملك شرقي . ان قصتكم لا تزال منتشرة في الغرب والشرق على السواء ، وهي تجري الآن على ألسنة الناس في بلاد العرب والفرس وتوغل في البعد حتى تصل الى بلاد الهند ، وتبلغ الحكاية في القرن العاشر آذان الغرب المبهور بسحر الشرق وأساطيره وحكاياته التي تفوح منها عطور المسك والعنبر والقصور والحريم . .

ويطلع عليها رجل الماني أطلق على نفسه اسم يوحنا السكسوني فينقلها باللاتينية سنة ألف وأربعمائة وسبعة عن نص فارسي أو عربي نقل بدوره عن أصل هندي، إن حكايتكم تتلفع الآن في ثوب شرقي وتروى بأسلوب شرقي يهيم الأنس والسمير في مجالس الشرب والرقص والخذر، وليال من ألف ليلة يهمس فيها ضوء القمر. لكي لا تنسوا أنكم قد أصبحتم في آخر المطاف شرقيين تواجهون الغرب المذهول بسحركم واطلاكم على الغيب المسطور من خيوط الكواكب والنجوم، بعد أن كنتم اغريقا تتحدون ملوك الشرق بحكمتكم وكبرياكم. ان هذه الحكاية..

الحكماء

: حكاية أخرى؟.. ألا تنوي أن تعيدنا الى قبورنا؟

المؤرخ

: حكمتكم لا تسكن قبرا، بل تحي قلبا أو فكرا.. انها آخر حكاية طافت بكم في جهات الأرض الأربع..

الحكماء

: آخر حكاية؟

المؤرخ

: نعم فقد جاء عصر النهضة فرجع للأصول القديمة وارتوى من المنابع الأصلية.. وبذلك لم يترك فرصة لخيال راوية يضيف من عنده ما يشاء، ولا لمؤرخ ضعفت ذاكرته وأصابها الوهن والانطفاء..

صولون

: آه! تعبت من الرحيل والتجوال في التراب أو حتى في الماء..

بيتاكوس

: وأنا أريد أن أرجع لقبري.. فلکم تجرعت المرارة في الحياة وبعد الحياة..

خيلون

: أما أنا فشبت من النسيان..

بيراندر

: وأنا ممن صبّ على اسمي اللعنة وعلى الطغيان..

بياس

: وأنا اشتقت لأرضي ولوطني الأم..

المؤرخ

: انظروا.. العالم وطنكم.. وستبقى حكمتكم هي حكمة كل الناس.. ألم أقل أن هذه الحكاية تذهب بكم الى الشرق..

الحكماء

: ان كانت آخر حكاية فقلها..

المؤرخ

: هي آخر حكاية، لكنها ليست آخر رحلات السندباد . .

الحكماء

: السندباد؟ . .

المؤرخ

: الذي طوّف بالبحار والجزر السبعة . . . حتى صار في النهاية واحدا

من الحكماء السبعة^(٣٧)

الحكماء

: وهو الذي ألف هذه الحكاية؟

المؤرخ

: ألف عنه كتاب يعرف باسم «سندباد نامة» اي كتاب سندباد، وهو

من كتب الأسماء العجيبة، والحكايات الغريبة، ينسب إلى حكيم

هندي يسمى سندباد، عاش في عصر ملك يدعى «كوشى» ووضع

هذا الكتاب الذي عرف بأسماء أخرى: كتاب الوزراء السبعة،

والمعلم والغلام، وامرأة الملك، وكتاب السندباد الحكيم .

الحكماء

: السندباد الحكيم؟

المؤرخ

: استمعوا الى مترجمه الفارسي وهو يصفه بقوله: صفحاته حافلة

ببدايع الفطرة، وصنائع الفكرة، وعجائب العقل، وغرائب

الفضل، ونوادر الخاطر، ونفائس الضمائر. هو ماء حياة القلوب

الميتة، وروضة أنس الأرواح الداوية . . .

<http://ArchiveBeta.Sakhrit.com>

الحكماء

: وفيه حكايتنا؟

المؤرخ

: وحكايات أخرى لا يحصيها العدّ . . وأشعار وأمثال ومواعظ

ونصائح وأخبار وقصص وحكم تدور حول قطب الرحي . .

الحكماء

: من تقصد؟

المؤرخ

: ومن غير سندباد الحكيم؟ ان الملك والوزراء السبعة، وابن الملك

الذي سيريه سندباد ويعلمه الحكمة، والجارية التي ستحاول إغواء

الامير، والحكايات التي سترويها الجارية لتتعجل قتل الأمير الذي

رفض ان يستجيب لغوايتها، ثم الحكايات التي يرويها الوزراء

السبعة لكي ينقضوا ما أبرمت الجارية ويؤجلوا قرار الملك بقتل

ابنه، وأخيرا حكايات الأمير نفسه بعد أن انفكت عقدة لسانه

فتساقطت الدرر من عقد حكمته وتناثرت اللآلئ من حبات
سنبلته .

الحكماء

: حكاية غريبة كأحلام الشرقيين .

المؤرخ

: بل حكايات وحكايات، ممتدة كليالي أسماهم، بطيئة وطويلة مثل

صبرهم ونومهم . . ولكنني سأكتفي بحكاية السندباد الحكيم .

الحكماء

: وبقية الحكماء؟ ألم نتكلم عن سبعة؟

المؤرخ

: نعم نعم . انهم الوزراء السبعة . وكل واحد منهم يدخل على الملك

ليروي عليه حكاية تبصره بعاقبة التعجيل بالقرار الرهيب . . ثم

تأتي الجارية في صباح اليوم التالي لتستحثه على اتخاذ القرار وتروي

له حكاية أو حكايتين . . ويدخل عليه وزير آخر . .

صولون

: قل لنا اذا ماذا فعل طاليس بعد أن ركب سفينته وطُوف ببلاد الهند

والعجم .

طاليس

: أو الرحالة صولون الذي أخفى عنا أخبار رحلاته .

المؤرخ

: اسمعوا بداية الحكاية وكل حكاية . .

الحكماء

: وعدتنا بحكاية واحدة .

المؤرخ

: وكل حكاية تبدأ هذه البداية . . كان في قديم الزمان، وسالف

العصر والأوان، ملك اسمه «كورديس»، هو الملك المتوج على

عرش هندوستان . . بالغ رواة الحديث وأصحاب التاريخ في بيان

فضله وكماله، والثناء على عقله وعلمه، والاشادة بعدله ورحمته

ورعايته للرعية، بحيث تسامح الصقر مع الحمامة، وتصالح الذئب

مع الشاة، ورعت السوائم مع الأسود في أطراف الممالك وأكناف

المسالك . . لكنه على الرغم من سعده وعظمة مملكته، كان يقضي

الساعات في الفكرة والحيرة . . كان يقول لنفسه في غرفة خلوته:

طائر الملك بلا فرخ، ودوحته بلا غصن، وأصله بلا فرع . .

ودخلت عليه جارية جمعت بين جمال الكياسة وكمال الفراسة، ولما

رأته على هذه الحال قالت

الجارية

: ما هذا التغير؟ وما موجب هذا التفكير؟

الملك

: ألم تخبرك عين فراستك عن ثلوج الشيب في شعري؟ ألم ترى يد
الأجل توشك أن تطوي بساط عمري، وتجرعني كأس قدري،
وتدفع بي إلى ليل قברי؟

الجارية

: وماذا في هذا يا مولاي؟

الملك

: ماذا فيه؟

الجارية

: لا بد من سماع نداء الأجل لأنه لا ربيع بغير خريف، ولا اجتماع
بغير وداع..

الملك

: وأودع وليس لي ولد يجلس على سرير ملكي، ويحفظه من حسد
الأصدقاء وغدر الأعداء، ويشرق في سمائه حين تأفل شمسي..

الجارية

: الأمل في فضل الخالق أن يكون وارث أعمارنا وأعمالنا. ورغبة الملك
في خلق لائق وأمنية في عقب رشيد تتيسر بصفاء الطوية، وتتهبأ
بخلوص النية وعرض الحاجة في حضرة أكرم الأكرمين وأرحم
الراحمين. ألم يأمرنا عز وجل: أدعوني أستجب لكم (٣٨).

المؤرخ

: وتصدق الملك على الفقراء والزهاد والعباد، وأدى نذور الخيرات
وأقام الصلوات ونوافل الطاعات، وخلا بالجارية المحبوبة فولد
البدر والشمس كوكبا في جمال يوسف، وكما المسيح، على جبينه أنوار
الكرم والعظمة، ومخايل النجابة والشهامة. ولما خرجت هذه الثمرة
من زهرة الوجود، صرف الملك نعمًا فاخرة وأموالا وافرة في الخيرات
وفاء بالنذور، وأتمما للسور، وأمر الحكماء والمنجمين..

الحكماء

: آه! يصبح الحكماء مرة أخرى منجمين!..

المؤرخ

: أمرهم أن يقرأوا طالع الأمير، فنظروا وحسبوا وقابلوا وقالوا للملك
العظيم: أهنا وعش مخلدا! ان ولدك سيفوق ملوك الأرض في العلم
والحكمة، والسخاء والمكرمة. ولم يطمئن الملك بمعاودة النظر

(مستمر)

والحساب والمقابلة، فنظروا وقالوا: بعد انقضاء سنين من عمره سيعرض له خطر على حياته، ولكن الخالق سيسهل تلك المعضلة، فلا يرى بعدها أي مكروه، ولا يحط غبار على صفحات كماله. . ولما بلغت سنه الثانية عشرة، أرسله الملك إلى المؤدب ليتعلم آداب الملوك. وممرت عشر سنين فلم يتعلم الصبي أي شيء من مدارك العلوم.

الملك : كل هذه السنين ولم يظهر عليه أثر. آه! لقد اغتمّ فؤادي وتولاه اليأس والضجر. هيا أحضروا الفلاسفة والحكماء! . . ولما مثلوا في حضرته صاح فيهم: من منكم يعلمه دقائق العلم ويلقنه أسرار الحكمة؟ من منكم يجعله خليقا بتيجان الملوك؟ أيها الحكماء السبعة! اختاروا واحدا منكم وأسلموه زمام هذه المهمة. .

المؤرخ : وتدبر الحكماء السبعة ذلك الامر ثلاثة أيام بلياليها. تناقشوا طويلا ونظروا في طالع الأمير وأدلى كل واحد برأي. وأحجم الجميع عن تعليم الصبي الذي لم يتعلم شيئا في عشر سنين. **حكيم :** ان العود الذي نبت أعوج، اذا زاد التكلف في تقويمه ينكسر ويتلف.

حكيم آخر : والحديد الذي صدئ في الأرض الملحة، لن تنفع النار ولا العقار في اصلاحه وخلاصه. .

حكيم ثالث : اذا كان لم يتقبل التعليم في بدء نشوئه ونموه، فالآن مستحيل أن يقبل التعليم

حكيم رابع : كان النحس متصلا بطالع هذا الصبي

المؤرخ : ولكن سندباد الذي حضر هذا الاجتماع فتح فمه وقال:

سندباد : الآن يزول هذا النحس. أنا أقبله وأعلمه

المؤرخ : نظر الحكماء إلى بعضهم وخافوا على أنفسهم. لاذوا بالصمت مليا قبل أن يقول واحد منهم.

حكيم : ان كلمات السندباد تشبه البرق والرعد والسحاب الذي جفت منه قطرات المطر . .

المؤرخ : وابتسم سندباد حين لمح ضباب الحقد يغشى نظراتهم وقال :

سندباد : الا تعلمون أن الحكمة في الانسان مثل المسك والعنبر، كلما ابتل

عوده بالماء ذاع شذاه وانتشر عبيره؟ ألم يستطع الانسان بالعقل

والحيلة أن يستنزل الطائر من الهواء، ويستخرج السمكة من قاع

البحر، ويروض الأسد والنمر والوحش الجامح؟

أحد الحكماء : إن هي الا كلمات لا يعرف حقيقتها الا من يرى ثمرتها. وشأنها يا

سندباد شأن حبات القمح قبل أن يطحن ويخبز ويؤكل، والسفن

الطافية على ظهر البحر قبل بلوغ الميناء، والشجعان قبل رجوعهم

إلى ديارهم ظافرين، والمرضى حتى يشفوا من الأسقام، والحوامل

حتى يضعن حملهن .

حكيم آخر : ولهذا لا نستطيع أن نمتدح كلامك حتى نتبين نتيجه

سندباد : ولكنني أعد الملك أن أتولى تربية ابنه حتى تفوق حكمته حكمتكم

أجمعين، وإذا لم أنجز وعدي فسأقدم رأسي لتقضي فيها حكمة عدله

قضاءها .

الحكماء : مهلا يا سندباد مهلا! لقد استغرقت في تحصيل المعارف والعلوم

حتى كاد بحر حكمتك أن يغرقنا. كل طائر أعطيته حبة تربيته

جعلته ندا للعنقاء والطاووس. وكل من زينته بحلى فضلك وعقلك

يستطيع مساواة الشمس ومناظرة القمر

سندباد : اني لا أغتر بمقالكم ولا يخفى عليّ خوفكم وترددكم

الحكماء : ان كان ثمة خوف فهو عليك

سندباد : حقا؟ سأذهب للملك وأعلن استعدادي لتربية الأمير

الحكماء : وسنذهب معك ونعلن انك ستجعله أحكم الحكماء

سندباد : حقا؟ وسأنجز وعدي في أقصر وقت ممكن (يذهب)

حكيم (همسا) : وبعدها تسقط رأسك في حجرك
الحكماء (همسا) : أو تسقط رؤوسنا في سلة الجلّاد .

- ١٠ -

المؤرخ : واتفق الحكماء على اختيار السندباد الحكيم لتعليم الأمير. وعهد أبوه
اليه بتربية ابنه وتعليمه مكارم الأخلاق، وقوانين السياسة، وآداب
السلطنة، ودقائق الشريعة، وحقائق الطريقة. وشغل سندباد
بتعليم الأمير جهد استطاعته، وقدم له كل ما في وسعه من الجهد
والطاقة، وبذل كل ما في صدره من مدخر المعارف والطرائف. لكن
الصبي لم يوطن قلبه على العلم، ولم يتحمل مشقة الحفظ
والتحصيل. وظل سندباد يقول لنفسه لعلّ وعسى، والولد لا يتقدم
ولا يتأخر. وبلغ الملك عما كان من ابنه فتفكر وتحير، وظهرت على
صفحات وجهه آثار التغير. ثم ملكه الغضب فصاح فيمن حوله:
الملك : هل ولد ابني بلا قلب ولا رأس؟ أكان سندباد يضرب بالمطرقة على
حديد بارد، أم كان ينقش على سطح الماء؟ أحضروا سندباد!
احضروه في الحال!

المؤرخ : وحضر السندباد فبادره الملك قائلا:
الملك : لماذا لم تألف قريحة الأمير الأدب والحكمة مع مشقة التعلم؟ هل
قصرّت في تربيته ورعايته، أم كنت كمطرب الأصم، وحامل المرأة
إلى الأعمى؟ تكلم! لا تخف عني شيئا .
سندباد : لا يخفى على جلال مولاي ولا على هؤلاء الأكابر - وهم نجوم سماء
الفضل، ورياحين بستان العدل - أن هذا الذي يشرف بالكلام
اليكم قد تبخر في الحكمة والعلم، وقضى عمره في التعليم والتعلم .
لقد قدمت كل ما يمكن ويتصور من الاجتهاد، ولكن ما كل من
طلب وجدّ وجد، ولا كل من ذهب ورد.

- الملك : ان الجواد الجامح أو الفيل الوحشي يعطونه لمن يروضه ويهذبه فيودع جموحه ويغير طباعه في مدة يسيرة . فما بالك لم تروض الأمير؟ .
- سندباد : لقد عجزت عن تغيير قلبه وطبعه ، لأن ذلك أمر خفي عني ، لا يتيسر بغير التأييد السماوي
- الملك : اتحمل السماء ذنب تقصيرك؟
- سندباد : بل يحمله طالع الأمير
- الملك : ماذا تقصد؟
- سندباد : لقد زال النحاس الذي تربص به طوال تلك المدة ، وبدأت السعود تطلع في فلكه . وأتعهد بأن أعلمه في ستة شهور .
- الملك : ما لم يتعلمه في اثنتي عشرة سنة؟
- سندباد : نعم يا مولاي . أعلمه معالي الأخلاق ، ودقائق العلوم ، وأسرار التنجيم ، وطرف علم الطب وخواص الادوية
- الملك : في ستة شهور؟
- سندباد : بلا زيادة ولا نقصان
- الملك : واذا حدث التقصير والتأخير؟
- سندباد : أكون مستوجبا عقوبة ملك الملوك
- الملك : أهو وعد آخر؟
- سندباد : بل وعد أخير أشفعه بطلب صغير
- الملك : تكلم . . قل ما بدا لك . .
- سندباد : أن تأمر ببناء بيت مكعب تصقل سطوحه بالجص والمحارة ، وتهياً للنقش عليها والكتابة
- الملك : وما ستكتب عليها؟
- سندباد : هذا ما سوف يعرفه الملك والحضور ، عندما تسألون الأمير فيتكلم بعد ستة شهور . .
- المؤرخ : أخذ سندباد يبذل جهده في تربية الأمير . وواظب الأمير وتحمل

الآلام في مطالعة الصور والأشكال بقوة البصر، وسإع دقائق العلوم ولطائف الحكم بحاسة السمع، حتى حفظ الغرر والدرر، واستوعب العجائب والغرائب، وكان سندباد قد أمر بأن تنقش صور البروج والكواكب على أحد سطوح البيت المكعب، وتسطر على سطح آخر أنواع المعاملات والاحلاق والاداب والعبادات وتثبت على سطح ثالث أسباب العلل وأسواء الأدوية وصنوف الأمزجة، وتبين على سطح رابع أنواع الأصوات ومراتب الأوتار ومدارج الأوزان والالخان، وترسم على سطح خامس الاشكال الهندسية من مثلثات ومربعات ومستقيبات ومنحنيات، ويسطر على سطح سادس قواعد تدبير الرياسة والسياسة، وقوانين العدل والانصاف ولما انقضت المدة وانتهت المهلة بعث الملك الى السندباد رسولا يقول: ها قد حل الموعد فهل أنجزت الوعد؟ وبعث سندباد الى الملك على لسان الرسول: ان شئت ايها الملك حضر اليك ولدك في الغد، ثم التفت للأمير وقال:

: لقد أبلغت أباك أنك ستكون عنده صباح الغد. ستعرض عليه ما حصلت، وتظهر ما حفظت، وتشهد الجميع انك قد أصبحت نواره شجرة الملك، وكوكب سماء الحكم.

سندباد

: ليكن ما تريد يا معلمي .

الأمير

: غير انني لم أنظر بعد في النجوم لاعرف طالعك .

سندباد

: افعل يا سيدي كما تقول . وانظر في النجوم لتعرف طالعي

الأمير

ونصيبي . .

: ونهض سندباد على قدميه ووضع الاضطراب، وظل ينظر درجات

المؤرخ

الطالع ويتحقق من الصور والاشكال والهيئات . ثم صرخ ولطم وجهه وصاح:

: ويلي ! ويلي ! ماذا أفعل؟

سندباد

- الأمير : ماذا بك يا معلمي؟ ماذا رأيت حتى تفعل هذا بنفسك؟
- سندباد : أنظر بنفسك يا ولدي وستعرف لماذا صرخت ولطمت وجهي . في طالعك نحوسة وخطر الى سبعة أيام متصلة . واذا تكلمت في هذه الايام السبعة مع أي مخلوق يكون في ذلك هلاكك .
- الأمير : ان أمرت أن لا أفتح فمي سبعة شهور كابلة فلن أعصي أمرك . اطمئن يا معلمي .
- سندباد : كيف اطمئن يا ولدي؟ اذا صحبتك إلى الحضرة العلية تقع في الخطر، واذا لم أصحبك أتعرض لعقوبة الملك . من لي بعلاج هذا المشكل وتدير هذا المعضل ! انهم سيصحبونك غدا .
- الأمير : وأين المشكل والمعضل يا معلمي؟ سأطيع أمرك ولن أفتح فمي . . وعندما يقتضي الحال تتدخل حكمتك . .
- سندباد : واذا كانت طوابع النجوم تقول : توار انت يا سندباد في هذه الأيام السبعة . .
- الأمير : فلتتوار أنت إذن . . ولتتدخل حكمتي . .
- المؤرخ : ولما ظهرت أنوار ملكة الكواكب ذهب الأمير إلى حضرة أبيه ووقف صامتا . . وكلما ألح الملك والوزراء وسألوه أن يتكلم لم يسمعوا منه أي جواب . فقال الملك :
- الملك : لعله يخجل من هذه الجماعة ولا يطلق لسان المقال في حضرتنا . ارسلوه الى سراي الحرم عساه يتكلم مع أهل الحجاب . .
- المؤرخ : كان في حرم الملك جارية هي الجمال بعينه . وكانت قد عشقت الأمير من مدة مديدة، فلما أن غاب عنها قنعت من وصاله بالخيال، وعللت قلبها عن فراقه بالأمال . وما كادت تسمع بما جرى حتى ذهبت الى الملك وقالت :
- الجارية : يا منيع الجلال ومطلع الكمال، أرسل الأمير إلى حجرة جاريته . لقد رعيت الدر اليتيم وعوضته عن حنان أمه . .

الملك : نعم الرأي ما رأيت يا درة قلبي وقرة عيني . . ليذهب إلى حجرتك عساه أن يتكلم معك . .

المؤرخ : وأخذت الجارية بيد الأمير ودخلت معه في حجرة الخلوة . واقتربت منه وهي تبته لواعج الشوق ، وتفتح قفص الصدر ليغرد طائر العشق . لم يفتح الأمير فمه فمدّت يدها إلى يده ، وقربت صدرها من صدره وتلوت وهمست في أذنه :

الجارية : افتح فمك كالوردة بوعده صادق ، حتى لا أمزق القميص كزهرة الشقائق . انها دعوى القلب ، أنا معك ، لا تصرخ . ها هو باب حكم العشق ، وها أنت وأنا . .

المؤرخ : وبقي فم الأمير مختوما بشمع الصمت . فمالته عليه حتى كادت أن تلمس شفثيه وقالت :

الجارية : ضع يدك في يدي . عاهدني أن أسلمك هذا الملك ، وإذا وفيت الوعود ولم تنقض العهود . .

المؤرخ : ولم يستطع الأمير أن يكتم إعصار غيظه فأطلق من فمه بركان غضبه :-

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

الأمير : كيف تدخلين هذا المستحيل في حد الامكان؟

الجارية : أسمُ الملك بالخيلة ، وأضع تاج المملكة على رأسك . .

الأمير : هل يليق بالابن أن يتعرض لحرم الأب؟ هل أبطل حق الشريعة والفتوة ، من أجل قضاء شهوة؟ انني إذا قلت كلمة في هذه الايام السبعة تكون سبب هلاكي وضياعي . ولولا كوكب النحس والخطر ، لابلغت أمرك للملك المنتقم ، لكنني سأسكت وأنتظر ، حتى تنقضي أيام النحوس وساعات البوس ، فتتالين جزاء العقوق ، وتعاقبين على خيانة الحقوق . .

المؤرخ : وخرج الأمير من حجرة الجارية وهو في أشد الغضب . وفكرت فيما بينها وبين نفسها وقالت وهي تعض بنان الندم على سوء تدبيرها ،

وتعص بالدمع المنهمر على هول مصيرها :

الجارية : ويلي ويلي ! لقد لوئث عرضي بالخيانة والفضيحة ، وصيرته هدف سهام العقاب والعذاب . ولو سمع الشاه الاعلى بما جرى لبطلت ثقته في عهدي وكمال محبتي ، وأنكر قديم اخلاصي وودي ، ويلي ! ويلي ! لقد عرضت نفسي لسخطه : ولا أمان للبحر والنار والسلطان . وإذا أمكنني تجنب البحر والنار ، فكيف أتجنب غضب الملك ؟ ليس أمامي الا أن ألجأ إلى لطف الحيلة ، وبديع التمويه والتزوير . ليس أمامي إلا أن أطأ الروح بالقدم في هذا الطريق ! وقبل أن تنقضي مهلة الأيام السبعة ويقرر الأمير خياني ، فلا بد أن أسبقه وأتهمه بالخيانة . .

المؤرخ : ومزقت الجارية ثيابها على الفور ، وانتزعت شعرها وخمشت وجهها ، وصاحت وهي تجري إلى تحت الشاه متنكرة متحيرة . .

الجارية : الغياث يا مسلمين ! يا أيها السلطان ! يا ملك العالم ! يا ظل الله في الأرض ومأوى كل مظلوم ! ايجوز أن بصير في عهد عدلك ظلم ، وترتكب في حق ذاتك خيانة ؟

الملك : ومن الذي ارتكب هذه الخيانة ؟ من تجرأ على هذا الظلم ؟

الجارية : لما صحبت الأمير إلى حجرتي ، أشفقت عليه شفقة الأمومة وقلت له : يا ثمرة الشجرة الملكية ! لم هذا الصمت ؟ ولماذا لا يغني بلبل لسانك على شجرة الكلام ؟ فما كان منه الا كما قالوا : سكت دهرًا ونطق كفرا . .

فتح فمه وقال : موجب صمتي داء حبك الذي لا علاج له . وهجرك الذي لا ينتهي . آه ! لقد وضعت يد العشق قفل السكوت على فمي . فاعلمي أن حبك امتزج بمائي وطيني ، واستقر في قلبي من المهد الى هذا العهد . لقد أسعف الحظ وأرسلني الشاه إلى حجرتك . فأطلقني روحي من قيد هواك واروي عطش فمي من ماء

بحرك، واقبلي خدمتي في كعبة جمالك، حتى أقضي على أبي بالسيف
أو بالسسم. ولما رأيت أن الجنون قد استولى على قلبه، وخفت أن
يتبع الأقوال الذميمة بارتكاب الفاحشة والجريمة، خلصت شرفي من
خناجر يديه، وجريت إلى ظل رحمتك وعدلك وأنا أقول ما قالت
زليخا: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً؟

المؤرخ

: وتأثر الملك وتعكر. ثم قال في غضب الأسد الغضنفر:

الملك

: الا أن يسجن أو عذاب أليم.. ليس هذا ولدي.. انه ليس من
أهلي.. لا بد من قلع الشوكة وقتل الافعى! ولا علاج للعضو
المريض الا القطع أو الحرق!

المؤرخ

: وأشار للسياف أن أخرجه وأهلكه. ولولا انكم كنتم هناك.

الحكماء

: نحن؟.. هناك في بلاط السلطان!

المؤرخ

: نعم. نعم. الحكماء والوزراء السبعة - كلكم كامل وعافل، وناصح
وعادل. تزينون سماء المملكة كالسيارات السبعة، وتثبتون قواعدها
برأيكم الصائب، وذهنكم الثاقب. فقد اتفق أن كان الوزراء في
طريقهم إلى الحضرة، فلما سمعوا ما قالته الجارية اجتمعوا للتشاور
والتأمل. وقال الوزير الأكبر..

الوزير الأكبر : لا يليق أن يلتفت السلطان إلى مقال امرأة ناقصة العقل..

وزير

: ويهلك ابنه في سورة غضبه

وزير

: ثم يتحسر ويندم حين لا تنفع الحسرة والندامة.

وزير

: وعندئذ لن يتهم رأي السلطان ولن يشك في عقله.

وزير

: بل سندان نحن ونرمى بسهام السخف والحمق.

وزير

: ويلقى علينا ذنب تعجله ويعاقبنا على جرمته..

الوزير الأكبر : ويبقى عرش المملكة بغير وريث، ويطمع العدو في الديار ويودي

بالطيب والخبيث.

وزير

: وإذا أمضى السلطان عزمته ونفذ أمره..

وزير : لم يسبق أن فعل هذا بغير مشورتنا وتديرنا . . .
الوزير الأكبر : فلنسرع اليه قبل أن يقر قراره . .
وزير : ويندم على حقه وطيشه . .
وزير : ونندم نحن على عقلنا وحكمتنا! . . .

- ١١ -

المؤرخ

: أخذ الوزراء والحكام السبعة يتشاورون ويتدبرون . واتفقت كلمتهم على الطريقة التي يخلصون بها الأمير من هول المصير: فيذهب كل يوم واحد منهم إلى حضرة السلطان ويروي له حكاية في مكر النساء وكيدهن، وبذلك يبطل الحكاية التي تكون الجارية قد روتها له في اليوم السابق لتستحبه على قتل الأمير. وأعجبهم الفكرة الحكيمة، ومضوا في تنفيذها لعلها تدفع الداهية العظيمة وتؤجل العقوبة الجسيمة، حتى تمر أيام النحوس، وتبديل بأوقات السعود التي تحيي موات النفوس. وأسرع الوزير والحكيم الأول إلى السيف وقال له:

<http://Archivebeta.Sakina.com>

الوزير

: أوقف عقوبة الأمير، حتى تتكشف الأمور . .

السيف

: لقد أبلغني رسوله الآن، بمشيئة حضرة السلطان . .

الوزير

: قلت أوقفها يا غبي، وحذار أن تلمس شعرة من رأس الصبي . .

السيف

: وإذا وصلني المرسوم والفرمان وعليه ختم السلطان . .

الوزير

: تلقيه في النار بلا إبطاء، ما لم تجد عليه أختام الحكماء السبعة

والوزراء . .

المؤرخ

: وذهب الوزير إلى حضرة السلطان، وقدم شروط الطاعة ولوازم

الثناء، ثم قال: ليس يوافق رأي السلطان الكافي، وعقله الوافي،

الاقدام على مثل هذه العقوبة الهائلة، والتي يتعذر تداركها حين

تنكشف شمس اليقين، من حجاب الشبه والظنون، ويصبح حالكم كحال ذلك الرجل الذي قتل ببيغاء بافتراء امرأته، ولما ميز الحق من الباطل، والزور من الصدق، لم تجده الحسرة، ولم تنفعه الندامة . . . وهنالك سأله الملك :

الملك : وكيف كانت تلك الحكاية؟ قل يا وزير . .

المؤرخ : وروى الوزير حكاية عن كيد النساء، أتبعها بحكاية أخرى عن دهائهن ومكرهن، لكي يصرف الملك عن تسليم الأمير لريح الفناء، بتزوير واحدة من بنات حواء . وسمعت الجارية في اليوم التالي أن الملك أجل عقوبة ابنه، لأن أحد الوزراء الحكماء ثناه عن امضاء عزمه . فذهبت أمام تخت الشاه، واستغاثت بعدله وانصافه، وحثته على الاسراع في تنفيذ العقوبة، حتى لا يحدث له عين ما حدث للقصار من ولده العاق . .

الملك : وكيف كانت تلك الحكاية؟ احكي ايته الجارية!

المؤرخ : وروت عليه حكاية القصار الذي كان مشغولا بغسل الثياب في النهر، فرأى ابنه الاحمق الجاهل يغرق مع حماره في الدوامة، وأنذفع في الماء لينقذه فتشبث به الولد وأغرقه معه . فما سمع الملك الحكاية قال :

الملك : هيا يا سيف! عجل برقبة ابني الفاسق العاق!

المؤرخ : وعندما وصل الخبر إلى الوزير الثاني أسرع للسياف وقال :

الوزير : أحذرك كما حذرك الوزير الأول! أجل القتل حتى أرى السلطان

وأحدثه عن فوائد ترك التهور والبعد عن مكائد النساء . .

المؤرخ : وجاء الوزير الثاني فروى رواية وحكى حكاية عن الرجل الذي ترك

طفله الوحيد مع قط يحرسه، ثم رجع إلى بيته فوجد على فمه آثار دماء . وجن جنونه حين تصور أنها دماء ابنه، فقتل القط شر قتله، ثم اكتشف سوء فعله عندما دخل بيته ووجد الطفل نائما في مهده

وعلى الأرض مزق من لحم ثعبان أسود أنشَب فيه القط الوفي مخلبه ونابه . . وعادت الجارية في اليوم التالي فروت رواية وحكت حكاية لاجباط تدبير الحكماء لنجاة الأمير، وتأجيل القرار المهلك الخطير. وهكذا استمر الحال إلى أن انقضت الأيام السبعة التي حكم على الأمير بأن يلزم فيها الصبر والسكوت، حتى يرتفع طالعُه من درجات النحوس إلى كواكب الخير والسعود.

وانطلق لسان الأمير فأرسل إلى الوزير الكبير، واثني على حكمته هو ومن معه من الوزراء، وطلب منه أن يذهب إلى أبيه، ويحمل إليه البشرى بنجاة من كل مكروه، ويطلب منه الأمر بإقامة محفل يضم الاعيان والكبراء، ويعرض فيه الأمير محصوله من علم العلماء وحكمة الحكماء. واجتمع الجمع العظيم، وطقق الأمير يظهر علمه المكنون، ويبرهن بالحكايات على مخالفة التقارير للتدابير، وكيفية تحول حاله من التعسير إلى التيسير، واتجاه همته إلى تحصيل أنوار العلم والعرفان، وأزهار الحكمة والبيان. والفضل لله ولسندباد. . . فالتفت الملك إلى السندباد الحكيم وقال:

الملك : كنت واثقا من عقلك وحكمتك، وفضلك وشهامتك. ولكن قل لي يا سندباد، كيف ساعدت ولدي على تحصيل هذه الحكمة الجليلة، في هذه المدة القليلة؟

سندباد : ليأذن مولاي بأن يرد الأمير على سؤاله . .

الملك : قل يا ولدي

الأمير : أصل كل العلوم العقل. وأصل العقل الحكمة. والحكمة فيض رباني. ومن يكون مسعود الحظ، تنهياً له الأسباب فتتنزل عليه.

الملك : والأسباب من تقدير الله يا ولدي . .

الأمير : جلت قدرته. وهو مسبب كل الأسباب . .

الملك : وبحكمة هذا الشيخ العاقل . .

- الأمير : حكمته ورعايته وفضله . أما الاسباب فعدة حكم أو كلمات . .
- الملك : كلمات؟ ماذا تقصد؟
- الأمير : كلمات دونها الشيخ على جدران القصر . .
- الملك : يدهشني قولك . تقصد ذلك البيت المكعب الذي طلب السندباد بناءه؟
- الأمير : وعلى كل جدار سطر حكمة . .
- الملك : أسمعني بعضا منها . . قُل . .
- الأمير : من يستمع لأقوال الواشي والنام ، يندم إذ لا يجدى الندم ويحيا في الآلام . .
- الملك : الحمد لله الذي نجانا منه . .
- الأمير : من يتربى في حضن الفطنة والعقل التام لا يغفل عن مكر عدو كالثعبان السام .
- الملك : نعم يا بني ، أوشكت أن أغفل عنه . .
- الأمير : مهما فعل الاخوان فلا تيغض أحداً فالجرح المؤلم من كف صديق لا يؤلم أبداً . .
- الملك : صدقت يا ولدي . لولا هم لجرحت جرحا لا يداوى .
- الأمير : شاور - إن رُمّت الرأي الصائب -
- أرباب الحكمة والعقل الثاقب .
- الملك : ونعم ما أشار به الحكماء السبعة من غير استشارة .
- الأمير : احذر اعدائك في الداخل واضمم حاشية الثوب فالسهم المارق من قوسك سيصيب القلب . .
- الملك : الحمد لله الذي أطاش السهم الغادر . . .
- الأمير : العاقل من لزم الصمت وصام الدهر
- إن نطق بقول يتدبر عاقبة الأمر . .
- المؤرخ : ورفع الملك يديه إلى السماء وقال : الحمد لله الذي زين ولدي بزيينة

العقل والحكمة، والآن آوان العزلة، والاستعداد للزاد، والتهيؤ للمعاد. ذهب القادمون واحدا واحدا، ولا يدل أحد على العائدين . .

الحكماء

: آه وذهبنا نحن أيضا . .

المؤرخ

: ورجعتم يا حكماء اليونان السبعة . . في أجيال منها الحكماء ومنها أعداء الحكمة . .

الحكماء

: أما الحكماء فقد تابعت خطاهم. لكن من هم أعداء الحكمة؟

المؤرخ

: الدجالون، ومن نطقوا باسم الحكمة. تجار الكلمة. والقوَّالون الوراقون الكتبة. يتحرك قلم ولسان، والقلب الغادر خوَّان وكر أفاع يفزع منه الشيطان . . والكذبة كالجارية بقصر السلطان . .

الحكماء

: قلب خوَّان؟ والكذبة كالجارية بقصر السلطان؟ ماذا تقصد؟ . .

- ١٢ -

المؤرخ

: ذهبت الجارية والأمير والسلطان والسندباد. لكن بقيت تلك الكلمات على جدران القصر . .

الحكماء

: الكلمات على جدران القصر؟!

المؤرخ

: تلك التي ردها الوزراء السبعة والأمير. تلك التي حفظت حكمتكم وحفظته . .

الحكماء

: حكمتنا نحن؟

المؤرخ

: ربما تغيرت قليلا. ربما صارت خيوطا في بساط شرقي ونسجت منها حكايات وحكايات . . لكنها أنقذت رأس الأمير . .

الحكماء

: وكيف عرفها الوزراء أو الحكماء السبعة؟

المؤرخ

: لا ندرى كيف. هل نفختها ريح الوجدان الشعبي فطارت من جزر اليونان لأرض العرب^(٣٩) وأرض الفرس؟ هل نقلتها قوافل التجار

المسافرين أو حملتها سيوف المحاربين؟ كل ما ندرية أنها تسللت إلى القلوب قبل أن تظهر في وقت الشدة . .

الحكماء : وهل لاحظت وجه الشبه بينهما؟

المؤرخ : وأنتم؟ ألم تلاحظوه؟

صولون : حذار! لا تبالغ في شيء!

المؤرخ : قالها الوزراء السبعة كل بطريقته . وعندما أسرف السلطان في تهوره

علّموه أن العاقل هو من يلزم حده . .

طاليس : الزم حدك . هذا قولي . .

المؤرخ : ولما سبق لسانه عقله حذروه . .

خيلون : لا تجعل لسانك يسبق عقلك . .

كليوبوليس : استمع كثيرا وتكلم قليلا . .

المؤرخ : وكذلك حذر الوزراء السبعة : العاقل من لزم الصمت وصام

الدهر، ان نطق بقول يتدبر عاقبة الأمر . .

بيرياندر : ليتهم قالوا للملك ما قلت : إن حالفك الحظ فراغ العدل .

واذا النحس أصابك فارح الحكمة والعقل . .

المؤرخ : وهل قالوا له غير هذا؟ لقد اندفع وراء طيشه وغضبه فظلوا يلحون

عليه أن يترث ويؤجل قراره :

شاور - ان رمت الرأي الصائب -

ارباب الحكمة والعقل الثاقب

صولون : لو بدأ بمعرفة النفس . .

طاليس : ألم أقل انها أصعب شيء؟

المؤرخ : ولكنه عرفها في النهاية . . ولولا حكمتكم . .

صولون : قلت لا تبالغ في شيء!

المؤرخ : لولاها ما بقيت رأس الأمير على رقبتة . فالحكمة تتدخل في وقت

المحنة وإذا غابت وافتقد الناس الحكماء ولم يجدوا القدوة . .

- الحكماء : فالكارثة أو اللعنة !
- المؤرخ : ذلك حق . ولهذا نحيا في المحنة .
- الحكماء : كيف وما زلت تردد حكمتنا ؟
- المؤرخ : وأعلمها ويعلمها غيري . نكتب عنها ونردها . لكن من يحياها ؟ من يذكرها ويحققها في نفسه ؟ .
- الحكماء : هل غاب الحكماء وجفت آبار الحكمة ؟
- المؤرخ : بل أصبح كهان الحكمة أعدى أعداء الحكمة . .
- طاليس : دعنا نسمعهم صوت العقل . .
- صولون : أو ندعوهم للمأدبة الكبرى .
- طاليس : ونذكرهم - قبل فوات الوقت - بأقوال الحكماء السبعة . .
- المؤرخ : هل يجدي هذا مع من لا يعرف نفسه ؟
- طاليس : لن يجدي شيء غيره ! . . أنا أبدأ قولي :
اعرف نفسك !
- معرفة الناس هي الحكمة
لكن معرفة النفس ضياء .
والنور الأكمل لا يتدفق ،
لا يتفرق الا من مهجة شمسك
صن نبع صفائك
ذد عنك السحب لكي لا تغشى شمس سماءك
واعرف نفسك يا صاح بنفسك !
- المؤرخ : أتفيد الحكمة من لا يعرف حدّه ؟
- كليوبوليس : اسمع قولي له :-
- الزم حدّك ، لا تطمع !
وإذا أحسست الرغبة فارغب في شيء واحد :
ألا ترغب شيئا !

ليس هنالك جرم أبشع
لا نكبة في العالم أفظع
من أن تأسرك الشهوة
ويسوقك ثور الجشع الأعمى
للثور الأجشع . .
فارض بما عندك واقنع .
الألوان الخمسة تعمي البصر فلا تطمع
والنغمات الخمس الناشزة تصم السمع
فارقد في حضن الصمت
وازهّد في اللذة فاللذة باب الموت
مرّ على الحان ولا تتطلع . .
حتى المعرفة أو الفطنة
حتى الحكمة ان جاوزت الحدّ
فنبذ الحكمة أنفع!
من ربح العالم فهو الخاسر
أما من أخسر النفس
فإن خسارته أوجع . .
المؤرخ : والمتظاهر . . لا يشغله الا المظهر،
هل يجدي معه النصيح . .
بياس : تدبر!
واصدق مع نفسك
كن، لا تظهر!
واسمع قول «بياس» وتفكر:
هل تظهر علمك وتؤكد أنك في العلم مقدّم؟
ليتك تعلم

أن العلم يميت الحكمة
والأعلم ليس هو الأحكم .
في أوقات المحن وزحف الطوفان الأعظم
يصبح أذكى الناس كأغياهم
والأفصح فيهم أبكم .
هل تظهر أنك أنت البطل الأوحـد؟
أنك بعد المذبحة الكبرى
صرت المنتصر الأعظم؟
البطل الأوحـد - فيما يؤثره من أقدم عهد -
كسب المعركة ووفى الوعد
ثم توارى لم تره الا عين الرب
عبر إلى الشط الآخر وانتظر الشعب
انتظر الموكب والبطل الظافر
ليتوجه اكليل المجد
مالت شمس نهار وانجدرت شمس أخرى للغرب
أما البطل فغاب ولم يظهر (٤٠) . . !

المؤرخ

: من يتخذ الحكمة ترفاً أو يجعل منها حلية ويثرثر - مثل الحاوي - في
زمن الضنك عن الحرية
ما قولك له؟!

بيتاكوس

: لن ينفع قول في زمن يسقط معنى القول .
فاجدل من قولي حبل الثورة والفعل .
يا من تلبس ثوب الحكمة في زمن المحنة والأحزان
اصنع من قولك حجراً وارجم كل الأوثان .
الشعب العاجز لا يملك دفعا للطغيان
هل نتأمل ضوء القمر وشعبك في الوحل مهان؟

الثورة هي فصل الحكمة ، ثر وتحرك!
واغضب للحق وأعلن للعالم سرّك وارفع صوتك!
واذا اختل نظام الشعب وساد الرعب
وضاع الواجب والقانون
فالحكمة في المحنة خوف والطيبة ضعف
والعقل جنون
عندئذ تستل الحكمة سيف العدل
وترفع أعلام الثورة والحرية
وتقاتل كي لا يسقط هذا العالم
في كفّ العسف الدموية .

جاء الحكماء وجاء الرسل وتركوا للناس وصية
للفقراء المحتاجين لخبز الحكمة والحرية
فروا من وجه طغاة الأرض ولبوا صوت الشعب
واجتمعوا تحت لواء البؤس زمانا .
ثم تواروا في ليل الغيب :
رهبان الهند وكهنة طيبة والفقراء بمكة ،

أتباع البوذا وزرادشت وكونفوشيوس والطاوية
والمحزونون مع المحزون على جبل الزيتون وفي جلجثة يوم الصلب
مدّوا حكمتهم طوق نجاة للبؤساء وعاشوا من أجل قضية
قضية الحكمة في وقت المحنة تثار وتثور وتضرب!
كن نورا في ليل العالم والحكمة شمسا وسما
تنقشع السحب وتقصر عنك سهام السفلة والسفهاء
واترك هذا العالم خيرا مما كان عليه
حين أتيت إليه . .

المؤرخ : حق ما قلت ويبقى القول هو القول

الحكماء

: أعداء الحكمة لن ينفع معهم قول أو فعل جُرب !

المؤرخ

: جربت وألقيت البذر

لم أحصد غير الحسرة والثمر المر

الحكماء

: قد يقع المطر على أرض صالحة خصبة

ويعر الصدق على الكاذب فيحرك قلبه

المؤرخ

: أعداء الحكمة في هذا العصر .

صم كالصخر .

شبهوا في جبر المكر وشابوا في حضن الغدر .

ماذا تنتظر من الاوغاد الكذبة؟

القوالين الوراقين الكتبة .

شهود الزور ونهازي الفرص

لصوص الموق والأحياء النهبة .

هل ينبت زرع في أرض خربة؟

اغتالوا الحق وراحوا بيبكون الميت

وأقاموا المأتم وانطلقوا بأعلى صوت :

الكاذب ينعى الصدق وينشد أروع مرثية

والمستلط يبيكي الحرية

والمستلقل يندب حظ الشرف الضائع وعبيد السلطة يفتون عن

الثورة .

والساجد للدولار يحض الناس على الزهد

ويسهب في مدح الفقر وإخلاص النية

والكل يصيح ويصرخ ويثير من اللاشيء قضية . .

الحكماء

: الكل ؟ ألا تستثني أحدا؟

المؤرخ

: أستثني القلة وقل من القلة . . من بالطبع أو العزة والأنفة . . عاشوا

في كنف الغربة . .

الحكماء : أتعيش الحكمة في تلك الغربية؟
المؤرخ : وتعزى النفس بذكرى الحكماء السبعة . .
الحكماء : ومن سيعزى الحكماء السبعة؟
المؤرخ : إن الحكمة تبكي أيضا . .
الحكماء : ابكي أيتها الحكمة . .
الحكماء : ابكي أيتها الحكمة . .

«انتهت»



(٢٨) هو ديسيموس ماجنوس أوزونيوس، العالم الشاعر وأستاذ النحو والبلاغة الذي ولد حوالي سنة ٣١٠ للميلاد في مدينة «بورودو» ومات في أواخر القرن الرابع، عمل مربيا للامير جراسيان الذي أصبح قيصرًا فيما بعد وقلّده المناصب العالية، وبعد اغتيال جراسيان سنة ٣٨٣ انسحب إلى ضيعته بالقرب من مدينته بورودو وتفرغ لشعره وكتاباتهِ المتنوعة التي تفوقت قيمتها التاريخية والحضارية على قيمتها الفنية والأدبية، وقد كتب هذه المسرحية القصيرة أو هذه اللعبة التمثيلية عن الحكماء السبعة وهو في شيخوخته حوالي سنة ٣٩٠ ميلادية عندما أصبحت الثقافة جافة ضحلة، وانعكست الضحالة والجفاف على شخصيات الحكماء السبعة الذين يتابعون على المسرح كأنهم آلات تحركها ساعة آلية ويلقون كلماتهم كما يفعل تلاميذ المدارس الذين يرددون أدوارهم المحفوظة. وعلى الرغم من رداءة الأشعار وخطأ كثير من المعلومات فإن لهذه اللعبة أهميتها في وقت انعدم فيه الشعر الدرامي أو كاد..

(٢٩) وهو الثوب الأبيض الفضفاض المعروف بالتوجا.

(٣٠) يلاحظ أن حكم الحكماء السبعة وعباراتهم قد وردت في الأصل اللاتيني باليونانية.

(٣١) ما بين قوسين إضافة مني لتوضيح معنى العبارة التي تقال على لسان صولون إلى الملك كرويزوس (أنظر اللوحة الثالثة).

(٣٢) أذكر القارئ بحكاية الكأس الذهبي أو البرونزي الذي عثر عليه الصيادون في خليج مسينا وعليه النقش إلى أحكم الحكماء (اللوحة الخامسة) كما أذكره بأن الحكاية نفسها تروى في صياغة أخرى عن وعاء ذهبي أو برونزي ذي ثلاثة قوائم يستخدم في المعابد لإطلاق البخور..

(٣٣) الإشارة إلى رسالتين من العصر البيزنطي عرف العلماء أولاهما من عدة مخطوطات دونت ابتداء من القرن الثاني عشر وفي هذه الرسالة بقية من العصر القديم وبعض أساء الحكماء السبعة. أما الرسالة الثانية التي ترجع مخطوطاتها إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر فتزدهم بخلط لا مثيل له، ولا نكاد نجد فيها غير أفكار من العهد القديم والعهد الجديد، على لسان شخصيات مشهورة مثل هوميروس وأفلاطون وأرسطو وهيرميس مثلث العظمة (وهو في الأصل تحوت اله الحكمة والكتابة المصري) وعندما يذكر الكاتب اسم أحد الحكماء السبعة تجده يخطيء فهو مثلاً يجعل اسم كليوبوليس كليو ميدبس..

(٣٤) ولد بالاسكندرية وعلم فيها من حوالي سنة ١٥٠ إلى حوالي سنة ٢١٥ بعد الميلاد. تأثر بأفلاطون بوجه خاص وبالرواقية وفلسفة فيلون وهو من رواد الفلسفة المسيحية والخنوص المسيحي، وقد اعتقد أن الكلمة أو اللوجاس ظهر فعله وتأثيره على الفلسفة الوثنية، وخصوصا فلسفة أفلاطون التي فسرها تفسيرا مسيحيا وتصور أنه لا غنى عنها في التسامي الى الله والتوجه إليه . .

(٣٥) تصرف في هذه العبارات المنسوبة إلى الشاعر المسيحي «ميناندر» حتى يستقيم المعنى الذي يدور حول الخشوع لله والتحذير من محاولة معرفته والبحث في طبيعته. وإليك الترجمة الحرفية للأصل: اخش الرب واعرفه، لكن لا تبحث عن ذاته ولا عن صفاته، وسواء أكان موجودا أم غير موجود فعليك أن تجله وتعرفه بوصفه موجودا، ذلك أن الجاحد هو الذي يسعى إلى معرفة الله . .

(٣٦) المقصود هو الرسالة الثانية إلى مر ذكرها في هامش سابق . .

(٣٧) أنظر كتاب سندباد الحكيم «سندباد نامه» في ترجمته العربية الرائعة عن الفارسية للدكتور أمين عبد المجيد بدوى - القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٧٨م.

(٣٨) وقال ربكم ادعوني استجب لكم (السورة رقم ٤٠ «غافر» الآية ٥٠).

(٣٩) ورد ذكر الحكماء السبعة ومقتطفات من أقوالهم عند بعض الفلاسفة المسلمين والمؤرخين للحكمة وطبقاتها . . فالبيروني يذكرهم في معرض كلامه عن قدماء اليونان (تحقيق ماللهند من مقولة، ص ٢٤) فيقول عنهم: إن قدماء اليونانيين قبل نجوم الحكمة فيهم بالسبعة المسمين أساطين الحكمة هم: أ - سولة الأثيني، ب - دوبيوس القاريبي، ج - وفارياندر يوس القورثي، د - وثاليس المليسوسي، هـ - وسيلون اللقازوموني، و - فيطيقوس لسبيوس، ي - وقيلبيوس لنديوس، ويذكرهم الشهر ستاني (الملل والنحل، ج ١ ص ١١٩) فيقول: الحكماء السبعة: الذين هم أساطين الحكمة من الملطية وساميا وأثينة وهي بلادهم . . ثم يورد أسماءهم فيخلط خلطا شديدا، ويدخل فيهم من المتقدمين أنكسيانيس وأنكساغوراس وأنابذوقليس وفيثاغورس، ومن المتأخرين سقراط وأفلاطون، وذلك على نحو ما فعل بعض الرواة في العصر المسيحي متأثرين بمصادر أفلاطونية محدثة، أما عن آرائهم فيأبى الشهر ستاني إلا أن يجعل منهم فلاسفة يدور كلامهم على ذكر وحدانية البارئ تعالى واحاطة علمه بالكائنات كيف هي؟ وفي الابداع وتكوين العالم، وان المبادئ الأولى: ماهي؟ وكم هي؟ وأن المعاد: ما هو؟ ومتى هو؟ وربما تكلموا في البارئ تعالى بنوع حركة وسكون . . وإذا كان الشهر ستاني يتتبع أخبارهم التي أغفلها متأخرو فلاسفة

الاسلام، فإن ابن النديم في الفهرست يشير اليهم إشارة عابرة عند كلامه عن أول من تكلم في الفلسفة معتمدا في ذلك على أقوال فرفوربوس السوري تلميذ أفلوطين وكاتب سيرة حياته . ولعل المفكر العربي الوحيد الذي اهتم بالحكماء السبعة وذكر أسماؤهم بدقة وروى تفاصيل حكايتهم مع الصيد أو المنجرة أو المقعد المثلث القوائم (وهو يسميها طرنوذا من ذهب) كما عُني بجمع اقوالهم وبخاصة صولون وسيرة حياته فهو المبشر بن فاتك (في كتابه الذي حققه أستاذنا عبد الرحمن بدوي، وهو مختار الحكم ومحاسن الكلم، ص ٣٤، وأخذ عنه كذلك الشهرزوري في كتابه نزهة الأرواح - أنظر في هذا كله كتاب من الميثولوجيا إلى الفلسفة للدكتور حسام محيي الدين الألوسي، من ص ٢٥٨ الى صفحة ٢٦٧ . .

(٤٠) إشارة من بعيد الى الحكيم الطاوي (نسبة إلى الطاو أو طريق الحقيقة وجوهر الأشياء في الفلسفة الطاوية في الصين القديمة) الذي يختفي عن الأنظار بعد أن يحقق الانتصار لشعبه ومدينته، وبالطبع لا يجبر الناس على الاحتفال به وهو مهزوم أو بعد هزيمته! ويقال إن هذا الحكيم الطاوي هو فان - لي من القرن الخامس قبل الميلاد. فقد وعدوا أن يهدوه نصف المملكة لو رجع من الحرب منتصرا ومعه جيوش «يووية» الظافرة. ولكنه ركب بعد تحقيق النصر مركبا خفيفا الى مكان مجهول ولم يسمع به أحد بعد ذلك ابدا . . (راجع ترجمة كاتب هذه السطور لكتاب تاو - تي - كنج، الطريق والفضيلة، سلسلة الالف كتاب، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٧، ص ٢٤) . .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>



بين المنهج الفكري والفلسفة



بِقَامِ / عدنان عبید العلی

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

منهجه الفكرى وخصائصه :

اعتمد أبو العلاء منهاجاً شمولياً في الفكر فلم يكن أحادي النظرة ،
فردى الوسيلة اذ جمع بين مناهج متعددة تجلّت في توحده (عزله)
وصوفيته ، وشكه ، وتقنيته معتمداً في هذه الشمولية على ثقافة واسعة
متنوعة تنوع موضوعاته .

ففي سنة ٤٧٠ هـ وحين بلغ أبو العلاء - من العمر - سبعا وثلاثين سنة اعتزل الناس^(١) عزلة ذكرها في إحدى رسائله قائلا : « . . . بعد أن

قضيت الحداثة فانقضت ، وودعت الشبيبة فمضت ، وحلبت الدهر
أشطره ، وجربت خيرهِ وشره فوجدت أوفق ما أصنعه في أيام الحياة عزلة
تجعلني من الناس كبارح الأروى من سانح النعام...»^(٢).

وتقول رسالته هذه ان هذه العزلة منهج اختاره بعد حقبة متقدمة ،
وفكر طويل . وليس بنتيح الساعة ، وريب الشهر والسنة^(٣) أراد منه
استبعاد الاحياء بخاصة وان الناس - بالنسبة اليه - مجهولون ، أو
كالمجهولين يسمع أصواتهم ولا يراهم ، ويحس أفعالهم ، ولا يراها . أما
حريتهم فهي « حرية مبتذلة لأنها حرية الأجسام لا حرية العقول
والنفوس »^(٤).

فبعده عن الناس يحقق فيه قوله :

بعدي عن الناس براء من سقامهم وقربهم للحجى والدين أدواء
كالبيت أفرد لا إبطاء يدركه ولا سناد ولا في اللفظ أقواء^(٥)

فحين يخلطهم بنفسه يضيف إليها أدأؤهم على حديثها وشبوها . فقد
يمقتهم - أحيانا - وهو يمقت بمقتهم الجهل الشامخ ، والايان المكابر والعقل
المريض . هو شقي من نوع شقاوتهم ولكنه يكافح في غير استسلام ، بيد
أنه مطمئن - مع ذلك - ان هذا التفاعل بين الكفاح والاعصار فمى بان
ينقدح بالبارقة الهاوية^(٦).

بل لقد ذهب المعري - في نظره الوجودي المثالي - الى أبعد من هذا
حين عدّ هذه الحياة ، والأجسام سجنا للروح في قوله :

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبئ
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسم الخبيث^(٧)

وربما كان المعري يعتقد أن الوجود الحقيقي هو وجود روحي ، لأنه
يرى أن مشكلات الانسان الوجودية جاءت بسبب اجتماع ؛ أو التقاء المادة

(الجسد) بغير المادة (الروح) ولهذا كان التفرد خير من الالفة في نظره :

الجسم والروح من قبل التقائهما كانا وديعين لا همّا ولا سقما
تفرّد الشيء خير من تآلفه بضده وتجرّ الالفة النقيضاً^(٨)

وإذا صح هذا الاستنتاج فإن أبا العلاء يعتقد كاخوان الصفا : ان الموت ولادة الروح^(٩).

وفي هذا الاعتزال - كما تفيد لزومياته - أراد تحقيق الأغراض التالية :

١ - تصحيح الطبيعة العضوية (الأصيلة) لأن الاختلاط - في نظره - يفسد العقل وعنصر الصدق فيه فوجب تنقيته من كل راسب عضوي^(١٠)
قبل البدء في البحث العقلي ، أو البحث عن الحقيقة . فالعزلة توفر (التركيز) الذي يزيل كل الصور الذهنية التي لا تنسجم مع مجرى الفكر . وبالتالي تنتج احساساً بهيجاً بالادراك الواعي لاغوارنا السحيقة .

قد أسرف الناس في الدعوى بجهلهم حتى ادّعوا أنهم للخلق أرباب
ألبابهم كان بالذات متصلاً طول الحياة وما للقوم ألباب^(١١)

٢ - التفلت من أسر القرية الاجتماعية ، وعدوى الفكر والشعور ، لأن العزلة اختزال الكائنات البشرية بل والأشياء المحيطة بنا .

بعدي عن الناس براء من سقامهم وقرهم للحجى والدين أدواء
كالبيت أفرد لا إبطاء يدركه ولا سناد ولا في اللفظ أقواء^(١٢)
تشاءب عمرو اذ تشاءب خالد بعدوى فما أعدتني الثؤباء^(١٣)

٣ - الريب في كل ما يعتبره الناس حقائق أولية ، ومبادئ للنظر ، والفكر^(١٤).

وما تريك مرآتي العين صادقة فاجعل لنفسك مرآة من الفكر^(١٥)
مرآة عقلك ان رأيت بها سوى ما في حجاك أرتة وهو قبيح^(١٦)

٤ - تحرير العقل من ضغط الأفكار التي سبق له الاقتناع بها^(١٧)، فهو يقول :

غدوت مريض العقل والدين فالقني لتسمع أنباء الامور الصحائح^(١٨)

فهو هنا يشجب جميع ما يعد (واقعا) فكريا فيزلزل العقل المطمئن ويحفزه على النظر مرة أخرى^(١٩).

قد صير الانسان في احشائه قبرا لغانية عن الأقبار^(٢٠)
فالمعري لا يثق بالحصول الذهني السابق لأنه بعض من العقل المكتسب المدخول^(٢١).

وقد يفسد الفكر في حالة فيوهك ادر قطر السرى^(٢٢)
وهذا العقل يمؤه ويخدع :

وربّ مسمّى عنبراً وهو موته وليثا وفيه أن يهيج نباح^(٢٣)
فهو يشك بقيمة الفكر الاصطلاحي ويؤمن بجوهر العقل دون مادة التعقل الكثيفة بالأوهام ، والمتناقضات^(٢٤). فاطراح كل معرفة سابقة هي المقدمة لكل معرفة صادقة :

لعمرك ما غادرت مطلع هضبة من الفكر إلّا وارتقيت هضابها^(٢٥)
ان عذب المين بأفواهكم فان صدقي بقمي أعذب^(٢٦)
وتتلخص عناصر منطق المعري في منهجه هذا فيما يأتي^(٢٧) :

أ - قانون التجربة المقترنة بعقل نفاذ وهو عنده - المنطق الأول للاثبات :

اذا قرن الظن المصيب من الفقى بتجربة جاء بعلم غيوب^(٢٨)

ب - قانون النفي والاثبات الذي استمد من الباطنية التي استمدته - حسب مقالها - من كلمة الشهادة (لا إله إلا الله) فقد عمدت وصاغتها في معادلة عقلية هي (لا . إلا) دالة على النفي للأشياء توصلنا الى اثبات الشيء . وهذا القانون ينتهي بنتيجتين : الأولى أن النظر العقلي ينبغي أن يتبدى بالنفي المطلق ليتوصل الى الاثبات المحدد . والثانية : أن الكثرة هي علامة الباطل (يلاحظ أن لا إله نفي للجنس) فالتعليل الذي ينتهي بتفسير ذي شعب يشهد على بطلان نفسه وان الوحدة هي علامة الحق (يلاحظ أن الاستثناء معيار العموم فهو يفيد القصر) ومشخصات هذا القانون تبدو في لزوميات أبي العلاء :

والانس ما بين اكنار الى عدم كالوحش ما بين احوال واخصاب
لم يثبتوا بقياس أصل دينهم فيحكموا بين رفاضٍ ونصاب^(٢٩)

ياليل : ضدان قوم في الدجى سهد تهجدوك وقوم فيك هجّاد^(٣٠)

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

تروم قياساً للحوادث ضلة وتلك أصول ليس يجمعها حصر
وعند ضياء الفجر صليت الضحى وعند غروب الشمس صليت العصر^(٣١)

.....

وما يزالون في شام وفي يمن يستنبطون قياسا ما له أمد
فذرهم ودياهم فقد شغلوا بها ويكفيك منها الواحد الصمد^(٣٢)

فأبو العلاء يرى أن الناس في تفكيرهم بين رجلين : ايجابي مبالغ ، وسلب مبالغ ولذلك ضلوا . فان المبالغة في الايجاب كثرة وهي باطلة . كما أن المبالغة في السلب كثرة وهي باطلة أيضا وفي كليهما لا يستقيم

قياس يكون حكما فصلا :

وقد اختار لهذا - مثلا - في حكم الناس على الامام علي في قوله :

ولكل ما اصبحت تدرك حسه ضدّ وكبرة من ترى كصغار
شيع أجلت يوم خم وانثنت أخرى تعارضها بيوم الغار (٣٣)

فالمنطق الذي يقوم على طرف الايجاب وحده يجر الى أضداد كثيرة في الايجاب والذي يقوم على طرف السلب يجر الى أمثالها كثرة في السلب . وإنما الحق في القياس ، أو القانون هو الذي يستوي على طرفي التناقض ويصاغ في بساطة الواحد . وتأليف التناقض ينتهي بالفة الفكر حتما دون إمكانية الكثرة واحتمالها (٣٤) . وفي النص الثاني الذي صدره بكلمة (ياليل) ينادي (الليل) بمعناه الكنائي وهو رمز دقيق وعميق ، لأن الليل يوحد المتجزئات ، والمتضادات الكونية ويظهرها بمظهر واحد . وقد استعمله الصوفية كناية عن وحدة الوجود . ومن أغانيهم شاعت (ياليل) مطلعا للأغاني العامة (٣٥) .

وقد امتاز المنهج الفكري لأبي العلاء بالميزات المهمة التالية :

١ - الشكية :

لم يكن أبو العلاء يعتقد أن المعرفة نسبية لا يمكن الوصول إليها . ولكنه يرى أن الانسان يستطيع ادراك أو ترجيح الحقيقة حين يستخدم منهجا يناسبها ، فمنها ما يدرك بالحس ومنها ما يدرك بالعقل ، ومنها ما يدرك أو يعرف بالنقل لأن للعقل الانساني حدودا وثوابت لا يستطيع تجاوزها . (وسيأتي بحث هذا في موضوع المعرفة) .

وفي نقده كان يوجه الشك الى منقوديه في رسالة الغفران حين تعرّض الى موضوعات دينية غيبية كالتوبة ، ومفهوم الكبائر في الأفعال أو

في موضوعات أدبية ولغوية في السماع والقياس .

٢ - الاستطراد :

لم يحافظ أبو العلاء على موضوع واحد في معظم مؤلفاته بقصد ، أو بدون قصد ، وربما أراد بالاستطراد القصدي نثر أفكاره ، والتعمية عليها ، وتلويها لدفع السأم الحاصل من كثرتها وعمقها . أما الاستطراد غير المقصود فربما كان استجابة غير واعية لثقافة غزيرة ، أو بسبب املائه لفقدان بصره ، وقد تجلى هذا الاستطراد في رسالة الغفران ، ورسالة الصاهل والشاحج ، والفصول والغايات .

٣ - الاستقراء :

لقد كان المعري يستعرض التفاصيل ، والوقائع الجزئية وبخاصة في الموضوعات اللغوية ، والأدبية ثم يخلص الى رأي أو ترجيح . وقد حفلت كتب نثره بهذا الاستقراء باستثناء رسائله القصيرة . أما كتابه الدفاعي (زجر النابح) فقد استقرأ فيه كما استقرأ في كتب نثره . ليوضح أو يدفع تهمة أو يرد على اعتداء .

٤ - النقد :

وجه المعري - بجانب عرضه آراءه - النقد الى الأفكار ، والمذاهب والعلماء ، والادباء ، واللغويين . ولم يكن في كل ذلك متعصبا ، أو متحاملا بل كان موضوعيا يعرض رأي غيره ، ويظهر ما فيه من خطأ ، أو ضعف ، ولا يصدر عن خبث أو حقد ، بل عن روح ساخرة تبغي التقويم ، والاصلاح .

٥ - الواقعية :

ربما تبدو الواقعية غريبة حين نعرض لهذه الميزة في منهجه الفكري ، لما شاع من مثالية في فكر أبي العلاء . ولكنه كان في نقده السياسي والاجتماعي والأدبي ينطلق من عالمه المادي فهو لا يأخذ بأساطير مجتمعه ، أو بعض مواصفاته ولكنه لا يميل إلى الخيال في النقد والعرض والتقويم ملتزما مشكلات عصره وبيئته بالإضافة إلى المشكلات الإنسانية العامة .

٦ - العقلانية :

دعا المعري إلى تحكيم العقل الفطري (الأصل) في النزاعات ، وفي المنهج كما تجلت عقلانيته في غياب الذاتية في نقده ، لضعف عنصر العاطفة في كتابته في مرحلة العزلة فكانت آثاره ذات طابع عقلي في النهج والموضوع ضعف بجانبها الشعور ، واضمحلت العواطف كما أنه أبعد ذاته فلم يتحدث عن نفسه في مرحلة العزلة إلا قليلا .

وفي موضوع (المعرفة) سيأتي بحث دعوته استخدام العقل منهاجا .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

٧ - التقية :

توارى المعري في كثير من أفكاره خلف أستار من الإبهام ، والكتمان والإطلاق مستخدما تقية فكرية صرّح باستخدامها في مواضع متعددة من شعره كقوله :

أوف ديوني وخلّ أقراضي مثلك لا يهتدي لأغراضي^(٣٦)

.....

فاكتم حديثك لا يشعر به أحد من رهط جبريل أو من رهط إبليس^(٣٧)

.....

قد نال خيرا في المعاصر ظاهرا من كان تحت لسانه مجنوءا^(٣٨)

لقد نبت أبو العلاء في الغموض ، وشد حول ذاته هالات كثيفة من التعمية في قصد وفي لذة أيضا . وتصور أني تبلغ التعمية بمن كبت على نفسه سائر لذاتها لتنتقل متدفقة في شكل حاد من السخرية بأشياء الناس وكان أقسى نكاية حينما قصد إلى التلهي بأفكارهم على ذلك النحو من الايغال^(٣٩) .

وتعليل هذه التقية هو خوفه من مجتمعه ، وخوفه عليه لئلا يصدمه بما لا يستطيع قبوله ، واحتماله « لأن الناس يتعايشون بالوازع الاجتماعي باعتقاد يحملهم على السلوك الحسن ، ويمنع بعضهم عن الاعتداء على بعض ، وكثيرا ما كان الوازع الاجتماعي مخالفا للحقيقة الفلسفية . فإذا صرّح بالحقيقة الفلسفية المناقضة للوازع الاجتماعي فسد ذلك الوازع ولم يعد بالإمكان حمل العامة على إدراك تلك الحقيقة الفلسفية »^(٤٠) . وفي ذلك يقول :

ارائيك فليغفر لي الله زلتي بذاك ودين العالمين رياء^(٤١)

لحاما الله دارا لا تدارى بمثل المين من لجح وقمس
إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت اليقين أطلت همسي^(٤٢)

٨ - التصوّف :

طبّق المعري على نفسه منهجا صوفيا صارما في عزلته . فلم يقترب من لذة جنسية ، أو أية لذة أخرى مستخدما ألوانا من الرياضة في تربية النفس وتعذيبها ، وفي قمع الشهوة ، والرغبة ليحصل على التسامي ، والإعلاء العقلي تمهيدا للبحث النظري في نشدان الحقيقة .

المعرفة عند المعري :

اختلف الفلاسفة في مقياس العلم ، وطريق البحث عنه فمن قائل أن العقل هو

المقياس فما يراه حقا فهو حق ، وما يراه باطلا فهو باطل . أما الأفلاطونية الحديثة فقالت أن العقل يستمد العلم بالأشياء من مصدر آخر غير الحس وهو ما يسميه الصوفية بـ (الإشراق) . أما السفسطائية فإنها لم تؤمن بسلامة ما يتوصل إليه العقل ، والحس من نتائج البحث ، لأنها كثيرا الاختلاف والتغير ، وطرف منهم من أنكر الحقيقة إنكارا تاما ، وقال أنها (الحقيقة) شيء يتغير بتغير الأشخاص ، والأزمان . أما (اللادرية) فوقفت موقفا سلبيا شاكا لم تثبت الحقيقة ، ولم تنكرها (٤٣) . أما المتكلمون المسلمون فقد أثبتوا الحقيقة وأضافوا مصدرا آخر لمعرفتها - بالإضافة إلى العقل - وهو الشرع ويعنون به الدين ولكنهم اختلفوا في أيها المقدم : العقل أم الشرع . فالمعتزلة قدموا العقل ، لأن معرفة الشرع لا تتم إلا به . أما الأشعرية فقد قدموا الشرع وقالوا : أنه المصدر الذي لا يأتيه الباطل (٤٤) .

فما هو موقف المعري من هذا ؟ وما المعرفة عنده ؟ وما الطريق إليها ؟ .

إننا واعدون في استقراء فكر المعري أن لديه اهتماما واضحا بالعقل وقضاياها ، وبالمعرفة وموضوعاتها . فهو يقول :

يرتجي أن يقوم أمام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيرا في صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحمة في المسير والارساء (٤٥) .

ويوضح مفهوم الإمام في كتابه « زجر النابح » بالقول : « إن الإنسان إذا سمع ما يخالف الشرع دله عقله على فضله فكأنه إمام له . وليس هذا انتقاصا بإمام المسلمين » (٤٦) وهو في هذا لا يخرج عن الرأي الديني العام في العقل . وهو - في الوقت نفسه - لا يتناقض مع قوله :

أيها الغر إن خصصت بعقل فاسألنه فكل عقل نبي (٤٧)

وليس هذا إيمانا بالبرهمية التي لا تؤمن بالنبوة - كما اتهمه بعض مؤرخيه (٤٨) - لأن النبوة تهذيب وإصلاح كما يقول :

جاء النبي بحق كي يهذبكم فهل أحسن لكم طبع بتهذيب^(٤٩)
وبسبب احترامه العقل ، أو رأيه الديني فيه هاجم السفسطائية التي أنكرت
الحقائق قائلا :

وقال أناس ما لأمر حقيقة فهل اثبتوا أن لا شقاء ولا نعمة
فنحن وهم في مزعم وتشاجر ويعلم رب الناس أكذبنا زعما^(٥٠)
وفي النصوص التالية يلفت الأنظار إلى أهمية العقل في لغة خطابية وعظية :
والعقل كالبحر ما غيضت غواربه شيئا ومنه بنو الأيام تغترف^(٥١)

.....

عليك بالعقل واترك غيره هدرًا فالعقل خير مشير ضمه النادي^(٥٢)

.....

وإنك إن تستعمل العقل لم يزل مبيتك في ليل بعقلك شمس^(٥٣)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واللب قطب والأمور له رحي فيه تدبّر كلها وتدار^(٥٤)

.....

وكم غرت الدنيا بنيتها وساءني مع الناس مين في الأحاديث والنقل
سأتبع من يدعو إلى الخير جاهدا وأرحل عنها ما أمامي سوى عقلي^(٥٥)

وفي النص الأخير يوجّه القول إلى (الإخبارية) العاملين بظواهر النصوص ، أو
بها دون تمحيصها ودرسها . فكثير من المنقولات أدت إلى تدين ضيق أسر العقل
واسترقه خلافا لما يراد من حقيقة الدين التي ينبغي أن تطلق العقل من العبودية
البشرية ، وتحثه على الاجتهاد ، وعدم الإنشداد إلى الفهم السلفي دائما ، أو استحضار
الماضي بظروفه ، أو القياس عليه دون النظر إلى حالات التجدد المستمرة . وذلك
بممارسة الاجتهاد الذي يقي الإنسان من التجمد ، أو الموت الفكري ، وينأى به من

الوقوع في دوائر ضيقة من الفهم الواحد ، أو الاستقراء الآلي المسبوق بقناعات تحدد مجالات فهم النصوص ، أو توجهها نحو الرغبة والمصلحة . واستخدام المعري عبارة (أمامي) في البيت الثاني من النص الأخير « هو تعبير عن ثقافة العصر بمقدار ما يعبر عن تبرم أبي العلاء بكثرة الأئمة والمعايير ، والشعارات التي اصطنعتها أحزاب العصر ، وفرقه ، ومعتقداته ، وفلسفاته . والمعري - في ذلك - يربط العقل المطلق ، والعام بالمعنى الشخصي (عقلي) وهي جرأة يعلن فيها أن لرأيه الشخصي الفردي مكانا وسط كل ذلك الزحام ، وأوتي ثقة بما يرسمه عقله ثم أن لاستخدامه لفظة (ما أمامي) أهمية أخرى تضاف لما في الإمامة من معنى . وللدور الهام الذي أدته فكرة الإمامة ولما اختلف فيها على المدلول وعلى الإمام ذاته »^(٥٦) . وفي ذلك التدين الضيق القائم على ظاهر النص تستر وتضليل وقضاء منافع وهو ما يعنيه بقوله :

تستروا بأمور في ديانتهم وإنما دينهم دين الزناديق
نكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى بإكرام وتصديق^(٥٧)

وفي هذا يساوي المعري بين تدين الرباء ، أو تدين المصلحة وبين الزندقة . ففي ذلك التدين تعطيل العقل ، أو ممارسة القهر ، والاضطهاد في تعطيله لئلا يكشف ما تستروا عليه .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ويعرض أبو العلاء لقضية الصراع بين العقلانية والشهوانية في قوله : « وإذا المعقول جعل هاديا نقع بريّه صاديا . ولكن أين من يصبر على إحكام العقل ويصقل فهمه أبلغ صقل ؟ هيهات^(٥٨) ! وهذا الصراع يتفق مع الفكر الديني الإسلامي ، كما يلتقي مع رأي فرويد فيما يسميه بـ (الكبت) في عملية كبح وتهذيب الجانب الشهواني والذي يعده باعثا من بواعث العلو النفسي والعقلي فبرغم ما تسببه مغالبة الغريزة ، وتهذيبها من آلام ومتاعب . غير أنها الضريبة التي يدفعها الإنسان لقاء تحضره وسموه وإبداعه . وقد عرف عند المتصوفة ، والفلاسفة والمفكرين أن هناك تناسبا عكسيا بين الفعل العقلي ، والفعل الشهواني ، بين سمو العقل واندحار الشهوة ، وبالعكس . وقد كان ذلك سببا رئيسا من أسباب قمع شهوة الجنس بـ (التعفف) عن الزواج^(٥٩)

وانتهاج الصوم^(٦٠) واعتناق النباتية زهادة وصحة وتقوية للإرادة وشحذا للذهن وتهذبا للطباع . وربما كان الفيلسوف اليوناني ديوجينيس الكلبي واحدا من أعجب بهم أبو العلاء فقد كانت حياة هذا الفيلسوف تطبيقا لمنهجه الذي يقول فيه : « إن عمارة الذهن بالحكمة وجلاء العقل بالأدب وقمع الشهوة بالعفاف وردع الغضب بالحلم . . . وإماتة الجسد بالزهد وتذليل المرح بالسكون ، ورياضة النفس حتى تصير مطية . . . حيث يروضها صاحبها في طلب العليات^(٦١) .

ومن تطبيقات منهجه العقلي رفضه شرب الخمر ، وحثه على اجتنابها لأنها تعطل العقل عن العمل كما يقول :

لا أشرب الراح أشرى طيب نشوتها بالعقل أفضل أنصاري وأعواني^(٦٢)
ولم يكن اجتنابها بدافع ديني فحسب بل بسبب علة الإسكار الذاتية فيها والتي تسلب العقل قدرته على التصرف وتضعفه بعد ذلك . ولو كان الدين قد أباحها لما شربها - كما يقول - برغم أنها تحمل بعض الهموم والأحزان :

أيأتي نبي يجعل الخمر طليقة فتحمل شيئا من همومي وأحزاني
وهيهات لو حلت لما كنت شاربيا مخففة في الحلم كفة ميزاني^(٦٣)
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>
ويستخدم الوعظ في حث الناس تجنب الخمرة بقوله : « خافوا الله وتجنبوا المنكرات اجتنبوا ما يذهب العقول . فيها عرف الصواب »^(٦٤) .

وفي النصوص التالية نقرأ ملاحظات وآراء هامة عن منهجه العقلي ومفهوم العقل الإنساني عنده يقول فيها :

هل صح قول من الحاكي فنقبله أم كل ذاك أباطيل وأسمار
أما العقول فآلت أنه كذب والعقل غرس له بالصدق أثمار^(٦٥)
فكلمة غرس في البيت الثاني تفتح فيها كل الخصائص حين تصبح نبتة .
فالعقل عنده مزود بخصائص ثابتة أي أوليات . وهي تنمو في أشكال مختلفة من طبيعة ما يستقي الغرس به ، فيجيء ضاويًا ملتويا حينًا ، وبالغا زكيا حينًا آخر^(٦٦) .

وفي قوله :

إذا تفكرت فكرا لا يخالطه فساد عقل صحيح هان ما صعبا^(٦٧)

فقوله (فساد عقل صحيح) يقرر فيه أن الصعوبة التي نعيها بها ، ونجهد في حلها ليس هو الشيء ، وليس في العقل نفسه ، وإنما ينبع مما يخالط العقل من الأباطيل وتسمى أفكارا ، وفلسفات ، ومسلمات أحيانا . وما تلك الأفكار في حقيقتها إلا فساد لا يزال بالعقل حتى يحتقن متورما^(٦٨) وهو يشرح لنا هذا في قوله :

لقد صدأت أفهام قوم فهل لنا صقال ويحتاج الحسام إلى الصقل^(٦٩)

وهو في هذا يحدثنا بأن المعارف التي نجهد بتحميل العقل إياها تترابك عليه مثل صدأ كثيف . ما أشد ماتكون الحاجة إلى عملية صقل تتناوله من كل جهاته وجوانبه كافة^(٧٠) على أنه ينتقل إلى منحى آخر في قوله :

نكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى بإكرام وتصديق^(٧١)

ليعرفنا بأننا نخضع العقل ، ونخضعه في إكراه لتصديق قضايا يزعمونها كالمسلمات والمبادئ ، وهو بهذا يلمسنا رأيه الصحيح في (عقل فطري) و (عقل مكتسب) والمعري يطمئن إلى الأول اطمئنانا لا حذله^(٧٢)، ولكنه يبدو أكثر وضوحا في قوله :

هي غربتان فغربة من عاقل ثم اغتراب من محكم عقله^(٧٣)

فهو يرى أن العقل الفطري انطمست معالمه بصدأ العقل المكتسب . والضرورة تقضي صقله . والسبيل إلى ذلك - كما يرى - بالإنفراد قدر ما يستطيع الإنسان لكي لا تعبت به العدوى وتهب عليه^(٧٤) عليه ربح الثوباء^(٧٥) كما يدل على ذلك قوله :

فانفرد ما استطعت فالقائل الصادق يضحي ثقلا على الجلساء^(٧٦)

.....

إن صح عقلك فالتفرد نعمة ونوى الأوانس غاية الإيناس^(٧٧)

ولكنها عزلة محصنة تسمح بتقليب قضايا العقل على شتى وجوهها في تمهل وتحليلها طويلا في صدق^(٧٨) فلم يكن المعري ليرى أن العقل لا يخطئ لكنه ربما يرجع ذلك لا إلى طبيعة العقل . فليس للعقل خطأ في ذاته . إنما ينشأ ذلك من أمر عارض فمأساة العقل أنه في جسد يخالطه هوى . فتغلبه الغريزة^(٧٨) وهو ما يبدو في قوله :

نهائي عقلي عن أمور كثيرة وطبعي إليه بالغريزة جاذبي^(٧٩)
وهناك إلى الطبع ، والغريزة جسم وفيه ميول قد تسيطر فما يعود لحكم العقل كماله وعصمته^(٨٠) .

ولو كان عقل النفس في الجسم كاملا لما أضمرت فيما يلم به غمًا^(٨١)
ولذلك احتاط المعري بالقول من أن العقل لا يستطيع أن يدرك تمام الحقيقة أو كمال اليقين^(٨٢) .

أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا^(٨٣)
ويوصي - محذرا - من تلقي المعرفة المزيفة ، وإخضاع ما يتلقى منها - عامة - إلى فحص عقلي دقيق . وبخاصة تلك المعرفة الدينية التي تختلط بالكذب ، والافتراء ، والخرافة كما يبدو في النصوص التالية :

والحديث المسموع يوزن بالعلم قل فيضوى إليه عرف ونكر^(٨٤)

.....

وينفر عقلي مغضبا إن تركته سدى واتبعت الشافعي ومالكا^(٨٥)

.....

يتلون أسفارهم والحق يخبرني بأن آخرها مين وأولها
صدقت يا عقل فليبعد اخوسفه صاغ الأحاديث افكا أو تأولها^(٨٦)

.....

لا يدينون بالعقول ولكن بأباطيل زخرف كذبوه^(٨٧) -

لأن التدين عند كثير من الناس - كما يرى المعري - يرثه الأبناء عن آبائهم
ويقلدونه عن أهلهم . وهو تدين مشكوك في سلامته ، بل ومرفوض لأنه ليس نتيجة
لجد العقل وقناعة مسعاه :

وما دان الفتى بحجى ولكن يعلمه التدين أقربوه^(٨٨)

ويقف المعري وسطا معتدلا لا يوغل في الدين برفق لكي لا يكون واحدا من
اثنين يقول فيهما :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهدت ويهود حارث والمجوس مُضَلَّة
اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له^(٨٩)

ويدعو المعري - كما يبدو - إلى التناصر بين العقل والدين فلا يتم إيمان علمي
حقيقي إلا بهذا التناصر . إذ أن في الدين جانبين : أحدهما متحرك والآخر ثابت وفي
الأول من السعة ما يمكن العقل فيه أن يتحرر مما عناه من المسلمات والقيود التي فرضها
- بالقهر والتغريم - فكر الـ (دِّين الذي لا عقل له) على المجتمع والأفراد .

غير أنه وقف أبو العلاء من الموضوعات الغيبية موقفا تقليديا معترفا بعجز العقل
عن التصدي لمثل هذه الموضوعات كالبحث في حقيقة الخالق ، وغاية الوجود ، وما
وراء المادة وغيرها إذ يقول :

متى عرض الحجا لله ضاقت مذاهبه عليه وإن عرضنه^(٩٠)

.....

خلقنا شيء غير باد وإنما نعيش قليلا ثم يُدركننا الهلك^(٩١)

.....

نفارق العيش لم نظفر بمعرفة أي المعاني بأهل الأرض مقصود
لم تعطنا العلم أخبار يجيء بها نقل ولا كوكب في الأرض مرصود^(٩٢)

.....

وإن أمرنا بفكر في بدائعهم وإن تفكر فيها معشر لحدوا^(٩٣)

وروم الفتى ما قد طوى الله علمه يعد جنونا أو شبيه جنون^(٩٤)

.....

أرى جوهرًا حل فيه عرض تبارك خالقه ما الغرض^(٩٥)
ولكنه لا يشك بغائية الوجود وحكمته كما يقول شعره الآتي :

وخلقتك من ربنا حكمة لقد جلّ عن لعب أو عبث^(٩٦)

.....

لولا بدائع دلت أن خالقنا أدرى وأحكم قلنا : خلقنا لم^(٩٧)
كما يؤمن بـ (قصدية) الإخفاء الوجودي في قوله :

في كل نفس أعجوبة

والحقائق عن البشر محجوبة^(٩٨)

وقد أذعن للمعجزة الدينية ، لأنه يرى أن النواميس الطبيعية ، والسنن الكونية
يمكن أن يجري ما هو خلافها فتتعطل حين يريد خالقها ذلك حيث يقول : « إذا سمعت
أن الرقيع أمطر جندلا ، وأنبت البقيع مندلا فقل أما في المعقول فلا وإما في القدرة
فبلى . العادات بإذن الله متغيرات »^(٩٩)

وفي هذا المعنى يخاطب الخالق : « لا يُعجزك ممتنع في العقول »^(١٠٠) ولهذا
السبب اتهم - المرحوم - الخولي المعري بأنه أدخل بمنهج الفلسفة ، لأن الأخيرة بحث حر
لا يحد نظر المفكر فيه حد ولا يحكم عقله غير منهجه فلا يعترف بأسرار محجبة ، ولا
يسلم بمناطق في الكون محرمة على العقل^(١٠١) إلا أن المعري قد وافق الفلسفة الدينية
بتحديد مواطن استخدام العقل ، وعدم الإنسياق في الإيمان المطلق به وبقدراته .
وهي محاولة للتوفيق بين الفلسفة والدين كالتي قام بها الغزالي في كتابه (المنقذ) وفيها
يقول : « أن هناك أمورًا تسمى خواصا لا يدور تصرف العقل حوالها أصلا ويكاد
العقل يكذبها ، ويقضي باستحالتها . وأكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات
مبني على هذا الجنس . فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه . وما لم يألفوه

قدروا استحالاته»^(١٠٢) فالمعرفة الحقيقية - عنده كما يبدو - غير ممكنة إلا فيما يتعلق بالمظاهر الطبيعية^(١٠٣) وهو رأي قديم قاله بروتاغوراس^(١٠٤) (ت ٤١١ ق. م) وطبقه (ديكارت) الذي يعتقد أن العقل يصلح مقياسا للمحسوسات لأنه سيد في منطقته المادية^(١٠٥) .

وأخيرا فإن المعري لم يتخذ العقل أصلا نظريا واحدا للمعرفة بل أشرك معه أصليين آخرين وهما الحس ، والنقل كما جاء في كتابه الشهير (الفصول والغايات)^(١٠٦) داعيا إلى تضافرها ، واستخدامها جميعا ، أو تقديمها بحسب موضوع البحث وطبيعته فلا يصلح كل أصل لكل موضوع . وبسبب هذا التعدد في المناهج والإيمان بـ (التكاملية) هاجم المعتزلة (العقليين) في لزومياته :

ومعتزل لم أوافقه ساعة أقول له في اللفظ دينك أجزل^(١٠٧)

وجدت الناس في هرج ومرج غواة بين معتزل ومرجي^(١٠٨)

كما هاجم خصومهم الأشاعرة الذين قدموا (الشرع) على (العقل) في رسالة الغفران^(١٠٩) وبهذا تجنب الـ (الأحادية) في المنهج متفردا بمذهب أو منهج يقول عنه :

ولي مذهب في هجري الانس نافع إذا القوم خاضوا في اختيار المذاهب^(١١٠)

تعريف الفلسفة

ليس للفلسفة تعريف محدد جامع مانع ، لأنها علم نظري يختلف في تعريفه بين عصر وآخر «ففي العصور القديمة لم تكن الفلسفة سوى البحث في العلوم الطبيعية ثم اتسع مدلولها حتى شملت جميع المعارف الإنسانية»^(١١١) .

فقد كانت عند أرسطو - مثلا - تشمل الماورئيات ، والأخلاقيات وعلوم الطبيعة^(١١٢) ، ولكنها برغم هذا الاختلاف في التعريف فإنها استقرت أخيرا على أن

« تعالج طبيعة الوجود ، والقوانين السائدة فيها ، والصلات بين أعيان الموجودات . وأن تتناول أيضا أسس السلوك والمعرفة . وعلى هذا تكون الفلسفة (علم مبادئ الوجود) » (١١٣) « أو هي » دراسة المبادئ الأولى وتفسير المعرفة تفسيراً عقلياً » (١١٤) . أو البحث في « ماهية الأشياء وأصولها وعلاقة بعضها ببعض » (١١٥) .

ولقد عرف الفلاسفة المسلمون الفلسفة تعريفات متعددة فالفارابي عرفها تعريفا لغوياً بقوله : « اسم الفلسفة يوناني ومعناه إثارة الحكمة والمؤثر للحكمة هو الذي يجعل الوكد من حياته والغرض من عمره الحكمة » (١١٦) ولكنه عرفها تعريفاً أوجز وأدل قائلاً : « الفلسفة حدها وماهيتها أنها العلم بالموجودات بما هي موجودة » (١١٧) .

وعرفها ابن سينا بقوله : « الحكمة صناعة نظر يستفيد منها الإنسان تحصيل ما عليه الوجود كله في نفسه وما عليه الواجب مما ينبغي أن يكسبه فعله لتشرف بذلك نفسه وتستكمل وتصير عالماً معقولاً مضاهياً للوجود وتستعد للسعادة القصوى بالآخرة وذلك بحسب الطاقة الإنسانية » (١١٨) .

أما ابن رشد فإن الفلسفة - عنده - هي العلاقة بين الخالق والمخلوق حيث قال : « فعل الفلسفة ليس شيئاً أكثر من النظر في الموجودات من جهة دلالتها على الصانع وكلما كانت المعرفة بصنعها أتم كانت المعرفة بصانعها أتم » (١١٩) .

مباحثها وغاياتها

تعالج الفلسفة الكون بكل ما فيه في وحدة موضوعية فتنتقل من المحسوس إلى غير المحسوس وتحاول أن تعلق عالم الواقع بالاستدلال النظري أنا . وبالتأمل الحدسي أنا آخر (١٢٠) فتحاول أن تستشف ماهية الموجودات بأن تبحث عن علة عللها ومبدأ مبادئها فتتخطى بذلك عالم الطبيعة إلى مبدأ غيبي من شأنه أن يعلل هذه المبادئ ويبسط أسرارها ، وطبائعها لذلك قيل في ماهية الفلسفة أنها (علم المبادئ) وجعل موضوعها (الموجود بما هو موجود) على أن بين العلم والفلسفة على تباين أغراضهما ، ووسائلهما صلة وثيقة هي أن العلم يغذي الفلسفة بنتائج اختباراته . والفلسفة تمد

العلم بما تتيحه له من وجود الإمكان والاحتمال^(١٢١) ، لذا كانت الفلسفة أسبق من العلم في وضع نتائجها بين يدي العلم .

أما غاية الفلسفة فهي « البحث عن الحقيقة وعلى الباحث أن يجرّد بحثه هذا من الغايات الصغرى من عاطفية واجتماعية ومادية^(١٢٢) .

وللفلسفة أقسام وأنواع أشهرها أربعة بحسب تقسيم اليونان القديم وهي : الرياضيات ، والمنطق ، والطبيعيات والإلهيات^(١٢٣) .

ومن أشهر موضوعات تلك الأقسام : ما بعد الطبيعة ، وفلسفة الطبيعة والنفس ، والجمال ، والأخلاق ، والقانون ، والاجتماع ، والتاريخ^(١٢٤) . لكننا اليوم لا نسمي أحدا فيلسوفا إلا إذا امتاز بأربع خصائص^(١٢٥) .

١ - البحث عن الحقيقة بحثا مجردا .

٢ - أن يكون بحثه نظريا شاملا لمظاهر الوجود كلها .

٣ - أن يجري في بحثه على أسس من المنطق المؤيد بالبراهين .

٤ - أن يوجد نظاما متماسكا خاصا به ثم يستطيع أن يفسر لنا بهذا النظام مظاهر الوجود . أما إذا فقد الفكر خاصية من هذه الخصائص فهو حكيم .

وبناء على هذا فإن أبا العلاء فيلسوف وفق التعريفات العامة للفلسفة التي تهدف البحث عن الحقيقة النظرية غير الخاضعة للهوى ، لأن « أبا العلاء كان يسعى جاهدا في سبيل تكوين رأي معقول عن الحياة والكون »^(١٢٦) .

أما إذا أردنا بالفلسفة البحث المنطقي المنظم في مشكلات الحياة والكون أو أي معنى اصطلاحى آخر من هذا القبيل فإن أبا العلاء حكيم ، أو أديب متفلسف جنح في فنه الأدبي إلى الفلسفة .

وفي هذا الاتجاه اختلفت تقويمات المحدثين في وضع أبي العلاء مكانه المناسب من الفلسفة قال دي بور : إن المعري ليس فيلسوفا برغم ما لديه من آراء معقولة ويكاد يكون خلوا من كل مقدرة على ربط الأشياء ببعضها فقد كانت له مقدرة على التحليل أما

التركيب فليس له منه نصيب^(١٢٧) وقالوا عنه : أنه شاعر (ميتافيزيقي) بحجة أن البحث (الميتافيزيقي) تأمل في العالم أما الفلسفة فتتضمن أكثر من التأمل : تتضمن طريقة ومنهجاً في تأمل العالم وقد أسس هذا الحكم على ملاحظة أن المعري مأخوذ بالمطلق : بالزمن والموت والفناء^(١٢٨) والأبدية ، وقال آخرون : أنه فيلسوف بدون فلسفة^(١٢٩) .

ونفى المحدثون من باحثينا الفلسفة عن المعري نفياً مطلقاً كالأستاذ الخولي^(١٣٠) ود. شوقي ضيف^(١٣١) ود. زكي المحاسني^(١٣٢) .

ولكن نفي الفلسفة عن المعري هنا النفي المطلق قد جاء لسببين اثنين رئيسيين : أولهما تناثر آرائه والثاني صياغتها الأدبية والشعرية ، لأن أبا العلاء كان صاحب فلسفة عملية لا تهتم بالتجريد الذي لا ينفع عامة الناس . وقد كانت العامة يوم كان أبو العلاء أحوج إلى النافع القريب . ولهذين السببين لحق المعري هذا الظلم العلمي دون أن ينظر نفاة الفلسفة العلائية « إن مفاهيم الفلسفة وقضاياها ورؤاها تضرب عمقا في جذور حياتنا كما في مظاهرها لا بالمعنى المطلق وحسب . بل وبالمعنى العملي والمباشر أيضا . فحضور الفلسفة أو فعلها أمر طبيعي وقائم في المدخل إلى كل علومنا كما في حياتنا اليومية العادية^(١٣٣) فكيف بالأدب الذي تزامن مع الفلسفة على مر التاريخ فظهر في آثار اليونان بشكل واضح حتى لقد كان جميع التراث الفلسفي اليوناني - حتى ظهور انكسيماندريس منظوما ومن المرجح أن يكون هذا أول كتاب يوناني يكتب بالنثر . وقد كتب الفيلسوفان اليونانيان بارميدس واميدوكليس بالشعر في تاريخ متأخر^(١٣٤) .

كما أن هناك محاولات فلسفية اتخذت الشكل الأدبي وسيلة للتعبير مثل عينية ابن سينا ، وشعر أبي عربي ، والحلاج . ورسالة ابن طفيل (حي بن يقظان) ومحاولات الجاحظ والمعتزلة عموماً . وقد لجأ الفكر الفلسفي إلى أكثر من شكل أدبي طريقاً إلى عقل الناس وقلوبها . لأن « الأدب والشعر بالذات يستلهم الفلسفة في إدراكاتها الشاملة ونفاذها العميق إلى (جوهر) الأشياء كما إلى علاقاتها . فهو يستلهم آفاق الفلسفة لا تقنياتها ، ومناهجها ، ويستلهم قضاياها وهمومها ، وأبعادها لا براهينها وأداتها إلا في حدود ضيقة جداً تقتضي تمكنا ، ومهارة قصوى باستمرار »^(١٣٥) فالهوة الفاصلة بين

الحلم والواقع ، وبين المستحيل والممكن هي أرض الفلسفة كما هي أرض الفن والأدب والشعر . والفنان أكثر تمثلاً للفلسفة هما وتساؤلاً وعمقا دون أن ينسحب ذلك - ضرورة - على أدائها وتقنياتها . فالعمق والشمول والقوة التي يتمتع بها إحساس الشاعر إنما تستند إلى قدرته على المقارنة والربط ، والاستقراء ، والتجريد ، والتعميم النفاذ إلى قلب الأشياء ، واستخراج مدلولاتها ، ومعانيها الغامضة وهي - جميعا - ملكات عقلية^(١٢٦) ومن الجدير ذكره هنا أن كلمة شاعر - عند اليونان القدماء - تعني الصانع وهي - عندنا - تقترب من هذا حيث تعني العالم . والشعر معناه العلم^(١٣٨) والشعر - عند كثير من النقاد - صناعة^(١٣٩) وبناء على هذا فإن المعري شاعر وفيلسوف . شاعر في رؤاه ودهشته وتساؤلاته ومناخه الخاص وتمكنه بينما هو فيلسوف في الأدوات التي استخدمها في استقراءه ودقة مقارنته ، ولجؤه إلى القياس ، والتحليل . وهو فيلسوف بوعيه العميق لموقع تساؤلاته . ففي أدبه من المضمون الفلسفي ما يكفي لصياغة نظريات ومواقف فلسفية^(١٤٠) وهو - برأي الأستاذ العلايلي - قد وضع أصول فلسفة جديدة^(١٤١) ولقد كان سلوكه مصداقاً لفلسفته الدينية والأخلاقية والاجتماعية فطبق على نفسه منهجه (الزاهد) ورياضته الصوفية الصارمة فتعفف ولم يتزوج ولم يطلب لذة مما صغر أو كبر ملتزماً بفلسفته (النباتية) خلافاً لما يعتقده الأستاذ الخولي من أن المعري لم يسر في حياته وفق تفكيره^(١٤٢) .

ثبت المراجع

- ١ - أوج التحري عن حيثة المعري - البديعي - تحقيق إبراهيم الكيلاني - مطب الترقي - دمشق ١٩٤٤ م .
- ٢ - البيان والتبيين - الجاحظ - تحقيق عبدالسلام هارون - مكتبة الخانجي - مصر ط ٤ - ١٩٧٥ م .
- ٣ - تاريخ الفكر العربي - عمر فروخ - دار العلم - لبنان - ط ٣ - ومط دار الكتب بيروت - ١٩٦٦ م - نشر دار العلم للملايين

- ٤ - تاريخ الفلسفة في الإسلام - دي بور - ترجمة عبدالهادي أبو ريذة - مط - لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر ١٩٣٨ م .
- ٥ - تجديد ذكرى أبي العلاء - د. طه حسين - دار المعارف - مصر - ط ٨ - ١٩٧٧ م .
- ٦ - تعريف القدماء بأبي العلاء - د. طه حسين - دار المعارف مصر - ط ٨ - ١٩٧٧ م .
- ٦ - تعريف القدماء بأبي العلاء - إشراف د. طه حسين وتحقيق مصطفى السقا وجماعه - الدار القومية للطباعة والنشر - ١٩٦٥ م - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٩٤٤ م .
- ٧ - جامعة الجامعة - اخوان الصفاء - تحقيق وتقديم عارف ناصر ط ونشر دار مكتبة الحياة بيروت بلا تاريخ .
- ٨ - حكيم المعره - د. فروخ - مط الكشاف بيروت - ط ٢ - ١٩٤٨ م .
- ٩ - ديوان الشعر العربي - علي أحمد سعيد - نشر المكتبة العصرية - بيروت - ١٩٦٤ م .
- ١٠ - رأي في أبي العلاء - أمين الخولي - ط مصر ١٣٦٣ هـ - ١٩٤٥ م .
- ١١ - رسائل أبي العلاء بشرح شاهين عطيه - منشورات دار القاموس الحديث - بيروت بلا تاريخ .
- ١٢ - رسالة الغفران - المعري - تحقيق عائشة عبدالرحمن - دار المعارف - مصر - ط ٦ - ١٩٧٧ م .
- ١٣ - زجر النابح - المعري تحقيق د. احمد الطرابلسي - مط الهاشمية - دمشق - ط ٢ - ١٩٦٢ م .
- ١٤ - أبو العلاء ناقد المجتمع - د. زكي المحاسني - دار المعارف لبنان - ١٩٦٣ م .
- ١٥ - العمدة - ابن رشيق - تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد - دار الجيل - ط ٤ - بيروت ١٩٧٢ م .
- ١٦ - الفصول والغايات - المعري - تحقيق محمود حسن زناتي - الهيئة المصرية العامة

للكتاب - مصر ١٩٧٧ م .

١٧ - فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره - د. حامد عبدالقادر - لجنة البيان العربي - مصر ١٩٥٠ م .

١٨ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي - د. شوقي صنيف - دار المعارف - مصر - ط ٩ - ١٩٧٦ م .

١٩ - في الأدب الفلسفي - محمد شفيق شيا - مؤسسة نوفل - لبنان - ط ١ - ١٩٨٠ م .

٢٠ - في الميزان الجديد - د. محمد مندور - مط الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر - ١٩٧٣ م .

٢١ - اللزوميات - المعري - مط التوفيقية - مصر ١٣٤٢ هـ .

٢٢ - لسان العرب - ابن منظور - دار صادر ودار بيروت - بيروت ١٩٥٥ و ١٩٥٦ .

٢٣ - مبادئ الفلسفة - أ. س رابويرت - ترجمه عن الإنكليزية أحمد أمين - دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٦٩ م .

٢٤ - مجلة مجمع اللغة العربية الاردني - سنة ٦ - حزيران ١٩٨٣ م

٢٥ - مجلة المقتطف - أول نوفمبر ١٩٣٨ م .

٢٦ - معالم الفكر العربي - د. كمال اليازجي - دار العلم للملايين - بيروت - ط ٣ - ١٩٦١ م .

٢٧ - مع أبي العلاء في سجنه - د. طه حسين - دار المعارف - مصر - ١٩٨٠ .

٢٨ - المعجم الأدبي - جبور عبدالنور - دار العلم للملايين - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٤ م .

٢٩ - المعري ذلك المجهول - عبدالله العلايلي - الأهلية للنشر والتوزيع - بيروت - ١٩٨١ م .

٣٠ - الملل والنحل - الشهرستاني - تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل - مؤسسة الحلبي - مصر بلا تاريخ .

٣١ - المنقذ من الضلال - الغزالي - اللجنة الدولية لترجمة الروائع - بيروت ١٩٥٩ م .

٣٢ - المهرجان الألفي - مط الترقى - دمشق ١٩٤٥ م .

الهوامش

- (١) ارشاد الأريب ضمن تعريف القدماء : ١٠١ .
- (٢) رسائله بشرح شاهين عطيه : ٨١ - ٨٢ .
- (٣) السابق : ٨٢ . ولكننا لا نلغي عوامل أغرته في هذا الاعتزال أهمها : طبعه واستعداده وكف بصره وفساد عصره .
- (٤) مع أبي العلاء في سجنه ، طه حسين : ٧٢ .
- (٥) اللزوميات ، ط مصر ٤٠/١ .
- (٦) المعري ذلك المجهول للعلايلي : ١٥ .
- (٧) اللزوميات : ط مصر ١٨٨/١ .
- (٨) السابق ٢٩٧/٢ .
- (٩) جامعة الجامعة لآخوان الصفا ، تحقيق عارف ثامر : ٦٥ .
- (١٠) المعري ذلك المجهول للعلايلي : ١٢٦ .
- (١١) اللزوميات ، ط مصر ٧٦/١ .
- الالباب : مصدر ألب في المكان اذا أقام فيه ولزمه . وألباب القوم : عقولهم .
(هامش اللزوميات ٣) .
- (١٢) اللزوميات ، ط مصر ٤٠/١ .
- (١٣) السابق ٣٤/١ .
- (١٤) المعري ذلك المجهول : <http://Archivebeta.Sakhr.co> ١٢٧ .
- (١٥) اللزوميات ، ط مصر ٣٣٨/١ .
- (١٦) السابق ٢١٣/١ .
- (١٧) المعري ذلك المجهول : ١٢٧ .
- (١٨) اللزوميات ، ط مصر ٢١٨/١ .
- (١٩) المعري ذلك المجهول : ١٢٧ .
- (٢٠) اللزوميات ، ط مصر ٤٢١/١ .
- (٢١) المعري ذلك المجهول : ١٢٨ .
- (٢٢) اللزوميات ، ط مصر ٦٦/١ .
- (٢٣) السابق ٢١١/١ .
- (٢٤) المعري ذلك المجهول : ٢٣ .
- (٢٥) اللزوميات ، ط مصر ١٢٥/١ .
- (٢٦) السابق ، ط مصر ٨٦/١ .

- (٢٧) المعري ذلك المجهول : ١٢٩ وما بعدها .
- (٢٨) اللزوميات ، ط مصر ١١٩/١ .
- (٢٩) اللزوميات ، ط مصر ١٢١/١ .
- (٣٠) نفسه ٢٤٤/١ .
- (٣١) نفسه ٣٠٠/١ .
- (٣٢) نفسه ٢٣٦/١ .
- (٣٣) نفسه ٤٢٢/١ .
- يوم خم أو غدیر خم مناسبة مقدسة عند الشيعة لأن مولادة علي تمت فيه ويوم الغار مناسبة مقدسة عند السنة لأن أبا بكر كان فيه ثاني اثنين . (هامش اللزوميات ٢) .
- (٣٤) المعري ذلك المجهول : ١٣٢ .
- (٣٥) السابق : ١٣٣ .
- (٣٦) اللزوميات ، ط مصر ٦٩/٢ .
- (٣٧) اللزوميات ٤٢/٢ .
- (٣٨) السابق ٥١/١ .
- (٣٩) المعري ذلك المجهول ٦ - ٧ .
- (٤٠) تاريخ الفكر العربي ، د. عمر فروخ : ٤٤٥ .
- (٤١) اللزوميات ، ط مصر ٣٧/١ .
- (٤٢) السابق ٤٥/٢ .
- (٤٣) تجديد ذكرى أبي العلاء ، طه حسين : ٢٣٧ .
- (٤٤) السابق : ٢٣٨ .
- (٤٥) اللزوميات ، ط مصر ٥٥/١ .
- (٤٦) زجر المنايع لأبي العلاء ، بتحقيق د. أمجد الطرابلسي : ١٨ .
- (٤٧) اللزوميات ، ط مصر ٤٣٩/٢ .
- (٤٨) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ضمن تعريف القدماء : ١٤٤ .
- (٤٩) اللزوميات ، ط مصر ١٢٥/١ .
- (٥٠) السابق ٢٩١/٢ - ٢٩٢ .
- (٥١) اللزوميات ، ط مصر ١٠١/٢ .
- (٥٢) نفسه ٢٧٥/١ .
- (٥٣) نفسه ٣٥/٢ .
- (٥٤) نفسه ٢٢٦/١ .
- (٥٥) نفسه ٢١٩/٢ .
- (٥٦) في الأدب الفلسفي ، د. محمد شفيق شيا : ١٥١ .

(٥٧) اللزوميات ١٤١/٢ .

(٥٨) رسالة الغفران بتحقيق بنت الشاطيء : ٤٦٤ .

(٥٩) تعرض المعري لهذا الصراع ولكنه تواضع عن القول بانتصار إرادته قال :

تنازعني إلى الشهوات نفسي فلا أنا منجح أبدا ولا هي
(اللزوميات ٤٣٣/٢) .

وقرن التعفف عن الزواج بالجزاء الديني :

توق النساء على عفة
فأبكارهن ابتكار البلاء
ليجزيك الواحد القيم
وأيمهن هي الآيم
(اللزوميات ٢٨٧/٢)

والآيم : بتشديد الياء هي التي فقدت زوجها . والاييم بالتخفيف هي الحية إلا أنه شددتها هنا
لضرورة الوزن (هامش اللزوميات) .

(٦٠) يقول المعري أن صومه دائم فلا يفطر إلا في العيدين (أنظر إرشاد الأريب ضمن تعريف القدماء

١٢٣) ويبدو أن هذا الصوم بدأه منذ سنة ٤٠٠ هـ وهي السنة التي بدأ فيها عزلته فدامت (٤٩)

سنة (أنظر رسائله بشرح شاهين عطيه ٨١ - ٨٢ .

(٦١) الملل والنحل للشهرستاني ٣٠١/٢ .

(٦٢) اللزوميات ، ط مصر ٣٨٢/٢ .

(٦٣) السابق ٢٧١/٢ .

(٦٤) الفصول والغايات لأبي العلاء ، بتحقيق محمود حسن زنائي : ٦٠ - ٦١ .

(٦٥) اللزوميات ٣١٣/١ .

(٦٦) المعري ذلك المجهول للعلايلي : ٩٥ .

(٦٧) اللزوميات ، ط مصر ١٩٥/١١ .

(٦٨) المعري ذلك المجهول : ٩٥ .

(٦٩) اللزوميات ، ط مصر ٢١٨/١ .

(٧٠) المعري ذلك المجهول : ٩٥ .

(٧١) اللزوميات ، ط مصر ١٤١/٢ .

(٧٢) المعري ذلك المجهول : ٩٦ .

(٧٣) اللزوميات ، ط مصر ٢٤٣/١ .

(٧٤) المعري ذلك المجهول : ٩٦ .

(٧٥) إشارة إلى قوله :

تشاء عمرو إذ تشاء خالد
بعدوى فما أعدتني الثؤبا

(اللزوميات ، ط مصر ٤٣/١) .

(٧٦) اللزوميات ٥٦/١ .

(٧٧) السابق ٤٩/١ .

(٧٨) المعري ذلك المجهول : ٩٦ .

(٧٩) اللزوميات ، ط مصر ١١٣/١ .

(٨٠) في الأدب الفلسفي : ١٥٣ .

(٨١) اللزوميات ، ط مصر ٢٨٦/٢ .

(٨٢) في الأدب الفلسفي : ١٥٣ .

(٨٣) اللزوميات ط مصر ٣١/٢ .

(٨٤) اللزوميات ط مصر ٣٤٢/١ .

(٨٥) السابق ١٥٥/٢ .

(٨٦) نفسه ٢٠٣/٢ .

(٨٧) نفسه ٤١٩/٢ .

(٨٨) نفسه ٤١٣/٢ .

(٨٩) اللزوميات ط مصر ١١٥/١ .

(٩٠) نفسه ٣٥٩/٢ .

(٩١) نفسه ١٤٦/٢ وربما احتذاه أناتول فرانس حين لخص حياة البشر بقوله : « أنهم ولدوا وتألوا

وماتوا » مجلة المقتطف ٤٩٨ مجلد مايو ١٩٣٨ من بحث لعلي أدهم .

(٩٢) اللزوميات ط مصر ٢٤٠/١ .

(٩٣) اللزوميات ط مصر ٣٣٨/١ .

(٩٤) نفسه ١٥٣/٢ .

(٩٥) نفسه ٧٠/٢ .

(٩٦) نفسه ١٩٠/١ .

(٩٧) نفسه ٢٧٥/٢ . واللمم : الجنون

(هامش اللزوميات ٦١) . <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

(٩٨) الايك والغصون للمعري ضمن أوج التحري للبيديعي ٦٧ .

(٩٩) الفصول والغايات لأبي العلاء بتحقيق زناتي ١٤٧ .

الرقيع : السماء . الجنندل : الحجارة . البقيع : مقبرة المدينة المنورة . والمندل : عود طيب الرائحة

(أنظر هامش المحقق من الفصول) .

(١٠٠) السابق ٤٧ .

(١٠١) رأي في أبي العلاء للخولي ١٠٤ .

(١٠٢) المنقذ من الضلال للغزالي ٥١ .

(١٠٣) حكيم المعرفة د. عمر فروخ ٥٣ .

(١٠٤) السابق ٣٩ .

(١٠٥) المهرجان الألفي ٣١١ من بحث لفؤاد البستاني (من ضحايا العقل) .

(١٠٦) الفصول ٥٥٢ - ٥٥٣ .

(١٠٧) اللزوميات ط مصر ١٧٨/٢ .

(١٠٨) السابق ٢٠٤/١ وأنظر رسالة الغفران بتحقيق بنت الشاطيء ٤٦٦ .

- (١٠٩) رسالة الغفران ٤٦٦ .
- (١١٠) اللزومات ط مصر ١١٨/١ .
- (١١١) تاريخ الفكر العربي . د. عمر فروخ ١٧ وأنظر المعجم الوسيط مادة فلسف والمعجم الأدبي لجبور عبدالنور ١٩٦ .
- (١١٢) المعجم الأدبي ١٩٦ .
- (١١٣) تاريخ الفكر العربي د. عمر فروخ ١٧ .
- (١١٤) المعجم الوسيط ٧٠٠/٢ مادة فلسف .
- (١١٥) مبادئ الفلسفة أ. س رابويرت ترجمة أحمد أمين ١٦ .
- (١١٦) تاريخ الفكر العربي د. عمر فروخ ١٧ . وتعريف الفارابي هو الأصل المنحوت المؤلف من (فيلو) بمعنى محب و (صوفيا) بمعنى الحكمة (تاريخ الفكر العربي ١٩) .
- (١١٧) تاريخ الفكر العربي د. عمر فروخ ١٧ .
- (١١٨) تاريخ الفكر العربي د. عمر فروخ ١٧ - ١٨ .
- (١١٩) نفسه ١٨ عن فصل المقال ٢٧ .
- (١٢٠) معالم الفكر العربي د. كمال اليازجي ١٦٤ .
- (١٢١) السابق ١٦٤ .
- (١٢٢) تاريخ الفكر العربي د. عمر فروخ ١٨ .
- (١٢٣) تاريخ الفكر العربي د. عمر فروخ ١٨ .
- (١٢٤) مبادئ الفلسفة ترجمة أحمد أمين ٢١ .
- (١٢٥) تاريخ الفكر العربي د. عمر فروخ ١٩ - ٢٠ .
- (١٢٦) فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره د. حامد عبدالقادر ١٥ .
- (١٢٧) تاريخ الفلسفة في الإسلام ٧٧ - ٧٨ . <http://Archivebeta.Sakila.Org>
- (١٢٨) ديوان الشعر العربي علي أحمد سعيد (أدونيس) ٢٨/٢ .
- (١٢٩) مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ٨١ / سنة ٦ حزيران ١٩٨٣ من بحث د. سحبان خليفات الموسوم (دراسة نقدية لبعض المعالجات الرئيسة لكتابات المعري) .
- (١٣٠) رأي في أبي العلاء ١٠٣ وانظر ردود د. محمد مندور في كتابه (في الميزان الجديد ١٣٣ وما بعدها على الأستاذ الخولي .
- (١٣١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٣٨٨ - ٣٨٩ و ٣٩٣ .
- (١٣٢) أبو العلاء ناقد المجتمع ٢١ .
- (١٣٣) في الأدب الفلسفي د. محمد شفيق شيا ٢٦ .
- (١٣٤) مجلة مجمع اللغة العربية الأردني / حزيران ٩٨٣ ص ٨٣ - ٨٤ .
- (١٣٥) في الأدب الفلسفي ١٣١ .
- (١٣٦) في الأدب الفلسفي ١٠٦ .
- (١٣٧) الفن ومذاهبه في الشعر العربي د. شوقي ضيف ١٤ .

- (١٣٨) لسان العرب ٤/٤٠٩ مادة شعر .
(١٣٩) البيان والتبيين ١/٢٢٢ وانظر روايته عن الخليفة عمر (رضى الله عنه) ٢/١٠١ ، العمدة
١/١١٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢/١١٣ ، ١١٥ وعلى هذا الأسكاس ألف العسكري كتابه
(الصناعتين) أي الكتابة والشعر .
(١٤٠) في الأدب الفلسفي ١٥٤ وأنظر ٨٧ .
(١٤١) المعري ذلك المجهول ٢٥ .
(١٤٢) رأي في أبي العلاء ١٠٢ .



[illegible]

بقلم: د. غانم جواد رضا

هو الامام المحدث ، المؤرخ الكبير ، أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني ، المعروف بابن الأثير الجزري^(١).

ولد ابن الأثير في جزيرة ابن عمر*، في رابع جمادي الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة^(٢)، وقد خرج بعض الدارسين المعاصرين من المستشرقين على إجماع المؤرخين في سنة ولادته، فذكر المستشرق (أدوارد براون) أن ولادته كانت في سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م^(٣) والتاريخ الأول أصح وأثبت.

(*) جزيرة ابن عمر : بلدة فوق الموصل ، بينها ثلاثة أيام ، ولها رستاق محصب يحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال ، فعمل له خندق أجرى الماء فيه فأحاط الماء بها . ينظر مراصد الاطلاع (١-٢٥٤) . وذكر ياقوت (معجم البلدان ٢-١٣٨) واحسب أن أول من عمرها الحسن ابن عمر بن خطاب التغلبي وقد ذكر بعض الباحثين هذه الجزيرة خطأ باسم جزيرة ابن عمرو (ينظر دائرة معارف القرن العشرين - محمد فريد وجدي ٤-٥٣-٥٤) . والصواب ما ذكره ياقوت وصاحب المراصد .

وقد نشأ ابن الأثير في هذه البلدة الممرعة الجميلة ، ثم سار منها مع والده وأخويه - محمد الدين المبارك (ت ٦٢٦ هـ) وضياء الدين نصر الله (ت ٦٢٨ هـ) - الى الموصل ، وفيها سكن . وكان يحضر فيها دروس أبي الفضل عبدالله بن أحمد الخطيب الطبرسي ومن في طبقته^(٤) .

ويذكر العماد الحنبلي في شذراته^(٥) أنه اشتغل في بلاد متعددة ، ومن تلك البلدان الاسلامية التي زارها مدينة بغداد ، وقدمها مراراً رسولاً من صاحب الموصل . وقد سمع فيها ابن الأثير من الشيخين أبي القاسم يعيش بك صدقة الفقيه الشافعي ، وأبي أحمد عبد الوهاب بك علي الصوفي وغيرهما^(٦) .

ثم رحل ابن الأثير بعد ذلك الى الشام ، فالقدس ، ودرس هناك على جماعة من فضلائها ، ثم عاد الى الموصل ، ولزم بيته منقطعاً الى العلم والتصنيف . وكان بيته - كما ذكر ياقوت^(٧) - مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين اليها .

ذكر ياقوت - وكان قد عاصره وزاره في بيته - يصف علمه وفضله :
« . . . وكان إماماً في حفظ الحديث ومعرفته ، وما يتعلق به ، وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم . . . »^(٨) .
ووصفه العماد الحنبلي فذكر يقول^(٩) :

« . . . وكان إماماً نساباً مؤرخاً اخبارياً أديباً نبيلاً محتشماً . . . » .

أما وفاته : فكانت في الموصل في الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاثين وستمائة هجرية ، ويذهب الى ذلك أكثر المؤرخين وأصحاب التراجم^(١٠) . أما المستشرق براون^(١١) فيشير الى أن وفاة ابن الأثير كانت سنة ٦٣١ هـ ، ولم يشر براون الى المصدر الذي اعتمده في إثبات هذا التاريخ .

أما مصنفات ابن الأثير التي وصلت الينا فهي عديدة ومهمة ، وانها لتدل بحق على غزارة علمه ، وجلالة قدره . ولعل أشهر تلك المصنفات .

١ - كتاب المكامل في التاريخ ، وهو أهم كتبه وأوعاها ، وهو مدار دراستنا هذه .

٢ - كتاب « أسد الغابة في معرفة الصحابة » وهو من الكتب المهمة ، وهو معجم أبجدي في تراجم الصحابة ، وقد أشار اليه ابن خلكان وسماه (أخبار الصحابة) وذكر أنه يقع في ستة مجلدات كبار^(١٢) . وذكر الحنبلي^(١٣) أن ابن الأثير قد جمع فيه بين كتاب ابن منده وكتاب أبي نعيم وكتاب ابن عبد البر وكتاب أبي موسى وزاد وأفاد .

لقد اعتمد ابن الأثير في تأليف هذا الكتاب على كتب الذين سبقوه ، إلا أنه أضاف أسماء كثير من الصحابة . ويشتمل هذا الكتاب النفيس على (٧٥٥٤) ترجمة^(١٤) . وقد رتب المؤلف تراجمه هذه ترتيباً دقيقاً على حروف الهجاء ، وقد ضبط بالحركات الأسماء المتشابهة التي تتفق رسماً وتختلف نطقاً ، كما أشار الى أنه شرح الكلمات العربية التي وردت في ثنايا التراجم ، وقد صوّب بعض الأخطاء التي وقع فيها المؤرخون الذين تقدموه .

إن هذا السفر النفيس الذي ألفه ابن الأثير لدليل آخر يكشف عن سعة اطلاعه ، ومعرفته بالأخبار ، ودقته في البحث والنقد ، وأصالته في التأليف . وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات منها : طبعة القاهرة في خمسة أجزاء سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣ م ، ثم طبع طبعة حديثة في سبعة مجلدات ضمن سلسلة (كتاب الشعب) بتحقيق لفيف من المحققين سنة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣ م .

٣ - كتاب اللباب في مختصر الأنساب : وهذا الكتاب - كما ذكر ابن خلكان^(١٥) - هو مختصر كتاب الأنساب لأبي سعيد عبد الكريم السمعاني . وقد استدرك ابن الأثير عليه في مواضع ، ونبه على أغلاط ، وزاد أشياء أهملها . ويشير ابن خلكان في الموضوع نفسه أيضاً يقول :

« وهو كتاب مفيد جداً . . وهو في ثلاثة مجلدات ، والأصل في ثمان وهو عزيز الوجود . . . »^(١٦) .

ويوجد في دار الكتب المصرية ثلاث قطع من هذا الكتاب بخط قديم . . .

٤ - كتاب تحفة العجائب وطرفة الغرائب ، ومنه نسخة خطية في المكتبة العثمانية

بحلب . وقد أشار الى هذا الكتاب جرجي زيدان في كتابة تاريخ آداب اللغة العربية^(١٧) .

٥ - كتاب تاريخ الدولة الأتابكية في الموصل : وقد طبع هذا الكتاب في باريس سنة ١٨٧٦م ٤٠٠ صفحة ، مع ترجمة فرنسية بقطع كبير ، ويوجد من هذا الكتاب أيضاً نسخة في المكتبة العثمانية بحلب كما أشار الى ذلك جرجي زيدان أيضاً .

٢ - منهج ابن الأثير في كتاب الكامل :

ما من ريب في أن كتاب الكامل من أشهر فطان التاريخ الاسلامي المتداولة بين أيدينا ، ومن أوثق المصادر التاريخية الاسلامية وأوضحها وأوعاها . . ولعل ذلك يعود الى ما عُرف به مؤلفه من سعة العلم ، وجليل القدر ، والدقة العلمية في التأليف ، حتى لقد ذهب الاستاذ عباس العزاوي في كتابه التعريف بالمؤرخين ، الى أن ابن الأثير في تاريخه أصلح تاريخ الطبري وأمثاله . . . !

لقد عارض ابن الأثير في كتابه الكامل بعض أسلافه من المؤرخين القدماء ، وحذا حذوهم في بناء خطة كتابه ، ورسم منهجه ؛ فبدأ كتابه بدراسة التاريخ القديم منذ بدء الخليقة ، وقد ساق المؤلف في هذا الجانب من كتابه - الذي شمل الجزء الأول - طائفة من القصص والحكايات ، ثم تسلسل في ذكر الانبياء من أبناء آدم ، وقد أتبعها بذكر قصص الانبياء المشهورة ، ثم أرّخ بعد ذلك للملوك الفرس والروم ، وذكر طبقاتهم ، ثم خلص الى ذكر أيام العرب ووقائعهم وأنسابهم . .

ويعتبر هذا الكتاب من المصادر المهمة لدراسة هذه الحقبة من تاريخ العصر الجاهلي .

أما الجزء الثاني ، فقد بدأه المؤلف بعصر الاسلام ، وقد استهله بالحديث عن نسب الرسول ﷺ وما يتعلق بسيرته ، ثم ختمه بأحداث مطلع سنة عشرين من الهجرة .

ثم يستمر ابن الأثير في كتابه القيم هذا جاريًا على السنين حتى ينتهي به الى أحداث سنة ثمان وعشرين وستمائة للهجرة ، حيث نراه يفصل في هذا الجانب من كتابه ، ما عاصره من أحداث خطيرة مرّت بها الدولة الاسلامية ، لا سيما اكتساح المغول للبلاد الاسلامية وتهشيم صرحها الشامخ التليد . .

إن كتاب الكامل في التاريخ يعدّ بحق من المصادر التاريخية الواسعة والمهمة ، ذلك لأن ابن الأثير قد جمع فيه خلاصات الكتب التاريخية التي تقدّمته* ، وقد قبس منها ما رآه صحيحاً ومشوقاً وطريفاً ومناسباً ، مع حرص بالغ ، ونزاهة عالية ، ودقة متناهية في تهذيب الروايات ، وتنقيح النصوص ، وتشذيب ما استمدّه من تلك المظان الموثوق بها ، وحذف ما رآه غير مناسب من الأحداث الثانوية . يضاف الى ذلك أنه كان يزيد على بعضها حقائق كثيرة يستخرجها من مجموع تلك التواريخ التي رجع اليها . .

ومن هنا يمكن القول : إن كتاب الكامل في التاريخ قد حاز قصب السبق على سواه من كتب التاريخ الأخرى . .

رأى ابن الأثير أن الكتب التاريخية السابقة قد جاءت مشتتة مبعثرة ، ولم تحوكل ما يريده طالب المعرفة .

يقول في مقدمة كتابه الكامل :

« فكان الطالب اذا أراد أن يطالع تاريخنا احتاج الى مجلدات كثيرة ، وكتب متعددة ، مع ما فيها من الاخلال والاحلال . . . » (١٨) .

ومن هذا المنطلق شرع ابن الأثير يؤلف تاريخه الكامل ، جامعاً كل تلك الأخبار المشتتة في ثانيا تلك المصادر التاريخية ، مبتدئاً من أول الزمان حتى نهاية الربع الأول من

(*) لقد استمد ابن الأثير - إضافة إلى تاريخ الطبري - من مصادر أخرى مهمة ، فاعتمد مثلاً فيما يخص المشرق الاسلامي على كثير من المؤرخين الذين كتبوا عن تلك النواحي من بلاد الاسلام كالاسلامي في كتابه القيم (تاريخ ولاة خراسان) والعتيبي في تاريخه المشهور (التاريخ اليميني) والبيهقي في كتابه (مشارب التجارب وغرائب الغوارب) وغيرها من المصادر الأخرى .

القرن السابع للهجرة ، جامعاً في هذا السفر الخالد ما لم يجتمع في كتاب واحد ! على أن ابن الأثير كان لا يتحرج من حذف وتشذيب بعض ما يقتبس من المصادر التي يستمد منها مادة كتابه - بما في ذلك تاريخ الطبري - غير أنه قد تصرف ، كما يبدو واضحاً ، في كثير مما كان ينقله عنه من أحداث وأخبار ، فكان أولاً يحذف الأسانيد المذكورة التي ساقها الطبري ، ثم كان يزيد على بعض الروايات التي رواها الطبري حقائق كثيرة يستخرجها ابن الأثير من تلك التواريخ الأخرى التي رجع إليها . .

يقول ابن الأثير مؤكداً ذلك في مقدمة كتابه الكامل :
« . . . فلما فرغتُ منه [أي كتاب الطبري] أخذتُ غيره من التواريخ المشهورة ، فطالعتها ، وأضفتُ منها الى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه ، ووضعتُ كل شيء منها موضعه . . . » (١٩) .

ومما تميّزه منهج ابن الأثير في تاريخه الكامل أيضاً : الموضوعية ، والدقة العلمية المتناهية ، والنزاهة العالية فيما ينقل ، ويقتبس من نصوص . . فلم يكن ابن الأثير - سعياً وراء الكمال ، وإكمال الحادثة المبتورة التي رآها في تاريخ الطبري خاصة - لم يكن يرجع الى المصادر التاريخية غير المشهورة ، أو المطعون في علم أصحابها ونزاهته أو دقته . فكان مما التزمه في منهجه هو الرجوع الى الكتب والمصادر الموثوق بها ، وبصحة متنها ، ونزاهة مؤلفها ، ممن يعلم صدقهم فيما ينقلوه ، وصحة ما يدونوه . .

يقول ابن الأثير موضحاً ذلك في مقدمة كتابه الكامل :
« . . . على أني لم أنقل إلا من التواريخ المذكورة والكتب المشهورة . . . ولم أكن كالحابط في ظلماء الليالي ، ولا كمن يجمع الحصباء واللائي . . . » (٢٠) .

ومن ملامح تلك الدقة والموضوعية في التأليف ؛ الامعان الواضح في ضبط الأسماء - من الاعلام وغيرها - المشتبهة المؤتلفة في الخط ، المختلفة في اللفظ الواردة فيه بالحروف ، ضبطاً يزيل الأشكال ، ويغني عن الانقاط والاشكال .

ولقد كان ابن الأثير - كما مرّ - يهذب النصوص التي يقع عليها ، ويهذب الأخبار التي يجمعها ، ويحذف منها أو يضيف إليها . يقول في مقدمة كتابه :

« . . . ثم ان نفرأ من إخواني ، وذوي المعارف والفضائل من خلّاني . . .
رغبوا في أن يسمعوهُ مني ، ليرووه عني ، فأعتذرتُ بالاعراض عنه ، وعدم الفراغ
منه ، فاني لم أعاود مطالعة مسودّته ، ولم أصلح ما فيها من غلط وسهو ، ولا اسقطتُ
منها ما يحتاج إلى إسقاط ومحو . . . » (٢١) .

يتضح مما تقدم أن منهج ابن الأثير يتميز بالدقة والتمحيص اللذين لم يعرفهما كثير
من المؤرخين السابقين ، فكان ابن الأثير ينقد الروايات التاريخية ، ويضيف إليها
إضافات من عنده ، مع شدّة الثبوت فيما ينقله أو يضيفه ، وقد يسمو أحياناً الى نقد
المصادر التي يستمدّ منها مادته ، وله في هذا الباب ، استدراكات مهمة على الطبري
والشهرستاني وغيرهما من المؤرخين الذين نقل عنهم . وعلى هذا فان كتاب الكامل
يعتبر مرجعاً أساسياً لدراسة عصور الاسلام ، لما يمتاز به من دقة علمية ، ولما عُرف به
مؤلفه من أمانة ونزاهة . .



جمع الروايات التاريخية في رواية واحدة :

كان بعض المؤرخين - ولا سيما الطبري ، الذي اعتمد عليه ابن الأثير كثيراً -
يذكرون للحادثة الواحدة روايات متعددة ، كل رواية منها مثل التي قبلها !! ، أو أقل
منها ، وربما تزيد بعض الزيادة عليها . . فحاول ابن الأثير أن يجمع تلك الروايات
جميعاً في رواية واحدة ، ثم يضيف إليها ما اعتمده في المصادر الأخرى ، كي يكملها ،
فيأتي - كما ينصّ في مقدمته - « جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقاً واحداً
على ما تراه . . . » (٢٢) .

وفيا يلي مقارنة موجزة بين روايتين لحادثة واحدة أوردها الطبري وابن الأثير ،
وهي حادثة « حصار مكة سنة ٦٤ هـ » .

نلاحظ أن الطبري في تاريخه يسلك في سرد هذه الحادثة سبيل الروايات
المتعددة ، ويذكر سندها أيضاً ، فنلاحظ أنه يعتمد على ما يرويهِ أولاً (محمد بن عمر)
فيقول :

« . . . احترقت الكعبة يوم السبت لثلاث ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين قبل أن يأتي نعي يزيد بن معاوية بتسعة وعشرين يوماً » (٢٣).

ثم يذكر الطبري بعد ذلك رواية (رباح بن مسلم عن أبيه) فيقول :
« . . . كانوا يوقدون حول الكعبة ، فأقبلت شرارة هبت بها الريح ، فأحترقت ثياب الكعبة ، واحترق خشب البيت يوم السبت لثلاث ليال خلون من ربيع الأول . . . » (٢٤).

ثم يشير الطبري أخيراً الى ما يرويه (عروة بن اذينة) فيقول :
« . . . قدمت مكة مع أبي يوم احترقت الكعبة قد خلصت إليها النار ، ورأيتها مجردة من الحريق ، ورأيت الركن قد اسود وانصدع في ثلاثة أمكنة . فقلت : ما أصاب الكعبة ؟ فأشاروا الى رجل من أصحاب عبدالله بن الزبير ، قالوا : هذا احترقت بسببه . أخذ قسباً في رأس رمح له فطيرت الريح به ، فضربت أستار الكعبة ما بين الركن اليماني والأسود » (٢٥).

وهكذا نجد أن الطبري يذكر الحادثة الواحدة مشيراً في الغالب الى الروايات المختلفة بأسانيدھا الواضحة .
<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

أما ابن الأثير فقد أخذ خلاصة هذه الروايات ، وحذف منها الأسانيد ، وقد تحكّم بهذه الرواية تحكّماً واضحاً .

يقول في وصف هذه الحادثة :

« . . . سار الحصين بالناس فقدم مكة لأربع بقين من المحرم سنة أربع وستين ، وقد بايع أهلها وأهل الحجاز عبدالله بن الزبير ، واجتمعوا عليه ، ولحق به المنهزمون من أهل المدينة . . . وضاربهم ابن الزبير الى الليل ، ثم انصرفوا عنه ، هذا في الحصر الأول ، ثم أقاموا عليه يقاتلونه بقية المحرم وصفر كله حتى اذا مضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين رموا البيت بالمجانيق وحرقوه بالنار . . . » (٢٦).

وهنا نجد أن ابن الأثير لا يكتفي بهذه الرواية ؛ لأهمية هذا الخبر ! فيذكر رواية

أخرى غير أنه رجّح إحدى الروایتین ، وهذا ما لم يسلكه الطبري في الغالب . يقول ابن الأثير :

« وقيل : إن الكعبة احترقت من نار كان يوقدها أصحاب عبدالله حول الكعبة ، وأقبلت شرارة هبت بها الريح ، فاحترقت ثياب الكعبة واحترق خشب البيت ، والأول أصحّ لأن البخاري قد ذكر في صحيحه أن ابن الزبير ترك الكعبة ليراها الناس محترقة يحرضهم على أهل الشام . . . » (٢٧)

ومن هذه المقارنة الدقيقة بين روايتي الطبري وابن الأثير نجد أن الأخير لم يكتف بالاعتماد على الرواية الموثوقة ! وسرد الأحداث التاريخية فحسب ، وإنما كان يضع نفسه وعقله في الحادثة التي يؤرخ لها ، فكان يتصرّف بها وفق ما يوحيه اليه المنطق التاريخي والحقيقة التي اقتنع بصحتها . .

جمعُ الحادثة الواحدة المتفرقة :

كان منهجُ أغلب المؤرخين الذين سبقوا ابن الأثير يقوم في الغالب ، على ذكر الحادثة الواحدة التي يسوقونها متفرقةً في سنين ، وكانوا يذكرون منها في كل شهر أشياء ، فكانت تلك الحادثة تأتي مجزأةً مقطعة ، لا يحصل منها على غرض ، ولا تفهم إلا بعد إمعان النظر . .

أما ابن الأثير فحاول أن يجمع تلك الحادثة الواحدة المتفرقة في موضع واحد ، فكان يجمع ما تفرق منها في كل شهر أو سنة في موضع واحد من كتابه ، فجاءت متناسقة متتابعة قد أخذ بعضها برقاب البعض الآخر .

وتحقيقاً لذلك رأى ابن الأثير أن المنهج السليم يقتضي أن يذكر في كل سنة لكل حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصّها ، على أنه لم يراع المنهج ذاته في الحوادث الصغيرة وغير المهمة ! فكان يفرد لجميع تلك الحوادث الصغار ترجمة واحدة في آخر كل سنة ، كما كان أيضاً يذكر ترجمة لمن توفي في تلك السنة من مشهوري العلماء والأعيان والفضلاء .

يقول ابن الأثير وهو يشرح منهجه في ذلك :

« ... وذكرت في كل سنة لكل حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصّها ، فأما الحوادث الصغار التي لا يحتمل منها كل شيء ترجمة فأنني أفردتُ لجميعها ترجمة واحدة في آخر كل سنة »^(٢٨).

التوسع والاستطراد في الرواية التاريخية :

مما لا شك فيه أن ابن الأثير حاول في تاريخه تجنب الاسهاب والافاضة في ذكر الحوادث الثانوية ، كما تجنب أيضاً ذكر الأسانيد ، وابتعد غالباً عن إيراد الروايات المتعددة حول الخبر الواحد .

وبالرغم من وضوح هذا المنهج الذي اعتمده المؤلف في كتابه ، إلا أنه كان يفصل في كثير من الحوادث الموجزة والأخبار التي يسوقها عن الطبري وغيره من المؤرخين ...

لقد كان ابن الأثير يتوسع في الروايات الموجزة التي يأخذها عن الطبري ، خاصة ، يأخذ الرواية التاريخية من جذورها ، ويتناولها من أساسها ، ثم يصف تشعباتها ، حتى يتدرج فيها الى النهاية .
<http://Archivebeta>

ففي ذكره فتح بلاد الأندلس مثلاً ، يأخذ ابن الأثير الرواية الموجودة عند الطبري فيتوسع فيها ، ولكي تتضح ميزة الاستطراد والتوسع في الرواية عند ابن الأثير أورد ما ذكره الطبري أولاً ، فنراه يؤرخ لأحداث سنة ٩٢ للهجرة فيقول :

« ... وفيها غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير الأندلس في اثني عشر ألفاً ، فلقي ملك الأندلس - زعم الواقدي أنه يقال له : أدربنوق ، وكان رجلاً من أهل أصبهان ، قال : وهم ملوك عجم الأندلس - فزحف له طارق بجميع من معه ، فزحف الأدربنوق في سرير الملك ، وعلى الأدربنوق تاجه وقفازه وجميع الحلية التي كان يلبسها الملوك ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى قتل الله الأدربنوق ، وفتح الأندلس سنة اثنتين وتسعين »^(٢٩).

لقد أخذ ابن الأثير هذه الحادثة من الطبري ، فتوسّع في تفاصيلها ، فبدأ بذكر الأندلس ، واشتقاق هذه اللفظة ، ثم عرج على ذكر أول من سكنها ، ثم ذكر الآراء المتناقضة في تسميتها .

يقول ابن الأثير :

« . . . أول من سكن الأندلس بعد الطوفان قوم يعرفون بالأندلس ، فعمرها وملكوها دهرًا طويلاً ، وكانوا مجوساً ، ثم أصابها قحط فهلك أكثرهم وفرّ الباقون . . . » (٣٠) .

وهكذا يتدرج ابن الأثير في ذكر هذه الحادثة ، ويتسلسل في ذكر الوقائع ، فيعدد سكان الأندلس من الأفارقة فعجم روما فجماعة البشنوليات ، والقوط . وغيرهم ، ثم يربط ذلك بالفتح الاسلامي كما ورد عند الطبري .

وقد لاحظتُ أيضاً أن ابن الأثير يضيف - وهو يؤرخ لهذه الحادثة - أشياء لم يتطرق إليها الطبري في تاريخه ، فنراه يسترسل في ذكر بعض الأساطير والخرافات ، فنراه مثلاً يذكر هذه الأسطورة :

« . . . فلما تكامل أصحاب طارق بالجبل نزل الى الصحراء ، وفتح الجزيرة الخضراء ، فأصاب بها عجزاً فقالت له : إني كان لي زوج ، وكان عالماً بالحوادث وكان يحدثهم عن أمير يدخل بلدهم ، ووصف من نعته أنه ضخم الهامة ، وأن في كتفه الأيسر شامة عليها شعر . فكشف طارق ثوبه فاذا الشامة كما ذكرت ، فأستبشر طارق أيضاً هو ومن معه ونزل الى الصحراء ، وافتتح الجزيرة الخضراء . . . » (٣١) .

وقد ورد في تاريخ ابن الأثير إضافة الى ما تقدم طائفة كبيرة من القصائد والمقطوعات الشعرية مما لم تمت وثيقة الى الحوادث التي قرنت بها ، على أن ذلك أعطى من ناحية أخرى ، لكتاب ابن الأثير أهمية كبيرة ، فأعتبر مرجعاً مهماً من مراجع الأدب إضافة الى قيمته التاريخية العظيمة .

النتيجة :

نخلص من هذه الدراسة الموجزة الى حقيقة مهمة واضحة تلك هي أن ابن الأثير قد نهج في كتابة تاريخه القيم أدق الأسس والقواعد العلمية التي تتبع أكثرها نحن اليوم في البحث والتأليف ! فهو يستقي مادته من مصادر قديمة موثوقة ، ثم يقوم بتمحيص وتحقيق ما يقتبسه من نصوص وأخبار قبل أن يودعها في مسودته ، يتولى بعد ذلك مراجعة تلك المسودة بالتهذيب والتنقيح والحذف والاضافة . وهذا - كما يتضح - منهج قديم يدل على قدرته العالية في التأليف ، وعلى بروز شخصيته العلمية في كتابة التاريخ ، وفقد الروايات ، وعدم تواريه خلف تلك الأحداث التاريخية التي يسوقها .

الهوامش والمصادر :

- (١) وفيات الأعيان - ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) ٣٣/٣ . د. محي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة . الطبعة الأولى ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .
- (٢) المصدر السابق ٣/٣٤ ، شذرات الذهب - العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) عني بنشره مكتبة القدس ١٣٥١ هـ .
- (٣) تاريخ الأدب في إيران - براون ص ٥٩٢ . ترجمة د. إبراهيم أمين . مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .
- (٤) دائرة معارف القرن العشرين - محمد فريد وجدي ٤ / ٥٣ - ٥٤ . الطبعة الرابعة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م .
- (٥) شذرات الذهب ١٣٧/٥ .
- (٦) وفيات الأعيان ٣/٣٣ ، دائرة معارف القرن العشرين ٤ / ٥٣ - ٥٤ .
- (٧) وفيات الأعيان ٣/٣٣ .
- (٨) المصدر السابق ٣/٣٤ .
- (٩) شذرات الذهب ١٣٧/٥ .
- (١٠) وفيات الأعيان ٣/٣٥ ، شذرات الذهب ١٣٧/٥ ، تاريخ آداب اللغة العربية - زيدان ٨٧/٣ ، دائرة معارف القرن العشرين ٤ / ٥٤ وغيرها من المصادر .
- (١١) تاريخ الأدب في إيران ص ٥٩٣ .
- (١٢) وفيات الأعيان ٣/٣٤ .

(١٣) شذرات الذهب ١٣٧/٥ .

(١٤) مقدمة كتاب أسد الغابة - بقلم المحققين : أحمد إبراهيم البنا ، ومحمد أحمد عاشور وآخرين

. ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

(١٥) وفيات الأعيان ٣/٣٤ .

(١٦) المصدر السابق ٣/٣٤ .

(١٧) تاريخ آداب اللغة العربية ٨٨/٣ .

(١٨) مقدمة كتاب الكامل في التاريخ ٥/١ المطبعة المنيرية . تحقيق عبدالوهاب النجار ١٣٤٨هـ .

(١٩) المصدر السابق ٦/١ .

(٢٠) المصدر السابق ٥/١ .

(٢١) المصدر السابق ٦/١ .

(٢٢) المصدر السابق ٦/١ .

(٢٣) تاريخ الطبري ٤٩٨/٥ تحقيق ابو الفضل ابراهيم . دار المعارف بمصر ١٩٦٨ (ط الثانية) .

(٢٤) المصدر السابق ٥/٤٩٨ .

(٢٥) المصدر السابق ٥/٤٩٩ .

(٢٦) الكامل في التاريخ ٣/٣٠٦ .

(٢٧) المصدر السابق ٣/٣١٦ .

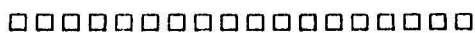
(٢٨) مقدمة كتاب الكامل ٥/١ - ٦ .

(٢٩) تاريخ الطبري ٦/٤٩٨ .

(٣٠) الكامل في التاريخ ٤/١١٩ .

(٣١) الكامل في التاريخ ٤/١٢٣ .





□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □

<http://Amphibien.de/Saxkbr>

براقة وخاطفه
ممزوجة بلمسة الرياح والبراءه
ونكهة الفردوس والبخور
ودعة المجون قوة الوهج
ونشوة البريق في مواقد الظلام



أناقة العواصف المجنحه
قادمة من مخدع الصخب
من صدرك المهاب
حيث تسامرت رياح في انفعالات اللهب
ويرقص الرحيق في الحريق



أناقة الأنامل المحترقه
تجمع في عروقها الذرى
وتلمس الأجنحه الظمأ
تكسر ألوان الرماد
عبر عيون متربه
تحرق طوفان الضباب



ألوانك الشّماء ترسم الطريق
إلى ممرات اللهب
وترسمين عبر سهمك الوهج
سنابلا تثور قرمزية على السحب
آه وتسبحين بحرا هابطا عبر السماء اللينّه

وتغرسين قطع الزمرد
قافلة بوارج الرماد
تلاحقين هامة الأجراس
منطلقه



بريشة ضائعة ملتحيه
مغموسة عبر السماء
رسمت في دم الجذور
حرية البراق

« هناك تسقط الحبيبة منك في الرمال
تصعد حول شعرها الرفيف
مطبعة في لحظة الوداع
بعد كل عناق »^(١)

تحت الجمال
تتنزع الطيور أطياف الوهج
زنابق دامية تفترس اللائىء المعذبه
آه وزهرة التوليب تحاول الصعود هاربه
داخلك الشفيق ينسج مشاعر الكروم
وتبعث الأشجار بالعزاء



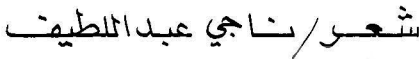
تساقط الشهب
وبقع صفراء

(١) فقرة مختصرة من قصيدة « الزمن المؤجل » للشاعرة انجبورج باخمان من كتاب « البلد البعيد »
للدكتور عبدالغفار مكاي .

مخلفات عازف البطولة
طائرة فوق تنائر الألم
مروع ، مفعمه ، ملتهبه
محترقه
محترقه
محترقه
حولك آه يرتخي قوس قزح
ممدداً يعزف موسيقى السهاد
آه وتستريح كفاي على كفّيك . .
تكتبان أشعار الرماد
« في حبال السكون تخل الأجراس إلى الراحه
قد يكون هو الموت
تعال اذن ، لا بد أن تستريح »^(٢)

ARCHIVE
●●●
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

(٢) فقرة من قصيدة « إلى الشمس » للشاعرة ، نفس المصدر السابق .



کل صباح ..

لكن القلب بجنييه شرأك تخدع

کان صدیقی ...

لا يعرف أن العين كثيراً ما تفضح صاحبها .

فتعريه النظرة منها ..

وتعريها النظرة منه . .

كان خجولاً حين تمرّ . .

يُطْرَقُ .. لا يملك أن يقرأ في عينيها السر .
اليوم .. يفيضُ بجنبية الجرح
يتذكرُ .. لحظة أن تصعدَ سلمها
فتقفزُ

أو تهبطُ .. تمسحُ يافطة الصندوق المغلق .
تغلقُ عيناهُ على وقفتهما .. في مدخل بيته .
يحفظ في عينيه لجارته الوجه ..
وما تقدرُ أن تسرقه العينان ..
يعودُ فيسقطُ في الحلم ..
يغني للقلب ..
وحسبُ !

من غلّقَ دُونِي بِأَبْكَ هَذَا الصَّبْحُ .. ؟
كان سؤالاً .. يعبثُ بالقلب ..
يدورُ بصاحبه الصبّ
فُيَقَى خلفَ زجاجِ النافذةِ الموصدِ ..
يحلمُ أن تأتي ذات صباح ..
تفتحُ شباكَ الغرفةِ ..
يكتُمها سره ..

ويناجيها .. ويعلمها بوح القلب
لكن السفر طویل ..
والرحلة في عينيه تمرُّ
كان ينام ويصحو .. لا يملك إلا الحلم بأن يأتيه شتاء ..
فتعود إليه ..

صندوقُ بريدك مازال يئن
من سيزيلُ الصدأ العالقِ بالاسمِ .. وبالقلبِ الذهبي .. ؟
حين تعودُ
كان يبادلها النظرة حين تمرُ
لا يتفوهُ بالسِرِّ ..
في العام الماضي ..
عادت من رحلتها ذات شتاء ..
أتذكرُ ..
ذات مساءً .. حدثها ..
- ما اسمك .. اسمي ..
- اسمك ...
كان القلبُ يدقُّ ..
وكان الصمتُ يدقُّ ..
وكادَ صديقي أن يسقطَ لولا
أن ولتَ نحو البابِ تدقُّ ..
الوجه .. الطفلُ يحدثني ..
لا يتمالك .. يغمره الفرحُ ..
كأن الشمسَ تؤوب ببطن الليلِ
اليوم .. يفيضُ بجنيهِ الجرحِ ..
لن يأتيه بهذا العام شتاء ..
لن يعبتَ ديسمبَرُ بالقلبِ ..
يعودُ .. فيسقطُ في الحلمِ ..
يدورُ بدورته الوثنيه

كل صباح ..
يهبط سَلْمُهُ العَذْبَ ..
يلقي بتحيته المرحه ..
للشباكِ المغلقِ ..
للصندوقِ المغلقِ ..
لليافطةِ الصدئة ..
للقلبِ المغلقِ ألف سلام
ويعيشُ على الحلمِ طوالَ العام ..





ماذا إذا شبت بطون القوم
غَطُّوا في المنام ؟
ماذا إذا باعوه للسواح
أو زَيَّنوا فيه المتاحف ..
فضَّلوه على الأوابد ؟
ماذا إذا قالوا : الحياة سعيدة جداً ...
- إذن - فاضحك لمن ...
ضجَّت له الأنخابُ وارتاع الحزين ؟!
فعلى شفا هاوية

هو واقف ويكاد يقتله الوقوف
فما يرى إلا الصعود إلى الحضيض !
إلا الوقوف من الصقيع !
إلا التراجع محتويه !
ماذا جرى ؟!

هو واحدٌ من أمةٍ
« هو واحد من هؤلاء »
وقفوا على سيف الطريق
شدّته للقاع الذرى
لكنّه الخيران في ورق الرصيف
وشذىّ تسرّب والتصق

في غفلةٍ من هؤلاء
فالليل يفتضّ القمر
يرمي به في الهاويه
ماذا إذا الورد احترق

بالحزن في ليل الخريف ؟!
(والحزن ليس زيادة من مترفٍ
والحزن ليس روايةً للحالمين
أو حليةً أو ذكرياتٍ فارحه ؟!)
« هو واحد من هؤلاء »

ممن يداهمه الظلام ، فلا سقوط ؟
ممن يناوشه اللثام ، فلا قنوط ؟
أحزانه الشعبية ..

صعدت به في الصابرين

هبطت به
هزجت له
أخذته جرّاء الصّمود إلى المحيط ؟
عنقاء بالحزن الجديد
فأتى إليه مهرولاً
طفل القرنفل في اليباب
- عمّاه . . لا ترمِ الرّبابَ فإنها صنو الجراح
اعزف لنا
اعزف لنا في الحزن ألحان الكفاح
اعزف لنا . .
شدّ الجناحَ على الجناح !!



[illegible]

حسب الله يحيى

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

للشارع الذي يوازي القناة ، امتدادان طويلان متعاكسان ، يفصل بينهما مجرى مائي وصفان من أشجار الزينة على كلا الجانبين .

كل يوم يمر بسيارته من هذا الشارع .. ذهابا وإيابا ، ولم يشغله إلا تفاصيل العمل التقليدي في دائرته ، والحياة الرتيبة في منزله .. والانتباه الى حركة السيارات عن يمينه ويساره .

أحيانا كان يمل من السفر فيه .. فهو

وعندما عرف اجتمعت في ذهنه وقلبه
كل المسرات ..

كان الوقت مساء من أحد أيام تشرين
أول .. حين رافقته تلك الفتاة السمراء
ليوصلها الى بيتها .. ودارت اسئلة ،
ودارت أجوبة .. دوران الأسئلة
والأجوبة جعلها يفكران معاً بأمر
عديدة .. وامتد بهما الطريق الى شارع
القناة ..

قالت : لكل شيء ثمن .. الرجال لا
يتعاملون مع المرأة إلا مقابل ثمن .
قال : ولكنهم كذلك لا يتعاملون مع
بعضهم .. إلا بالمقايضة .

وسكتا ..
سألها : ألا يمكن أن نكسر هذا
التحديد ؟

سألته : من يكسره ؟
تجرباً وقال : أنا وأنتِ .
قالت : اثنان .. في مواجهة تيار
المصاعب .

قال : فليكن .. مادامت هناك
قناعات داخلية .
وسكتا .. ثانية .
التفت اليها ، فوجدها تنظر اليه
بانتهاب .. وسره أن يراها وأن تراه ..

وحاول أن يلغي من ذاكرته أوجه
المقارنة .. لكن صورة الشارع كانت تقع
أمام بصيرته كل يوم .. وتجعله يؤكد
المقارنة .

.. وعشق شارع القناة ، عشق
الأشجار والماء والناس الذين ينتظرون
حافلة ثقيلة بطيئة ، لا تمر إلا بعد أن
يتمتع الجميع بلهب الصيف وبرد
الشتاء .. وما بينهما من أوقات الانتظار
المملة ..

عشقهم ، وصار يشفق عليهم
ويدعوهم لمرافقته .. وعشق معهم الغبار
والأطيان .. وارتضى مخالفة السابلة
الذين لا يعبرون الجسر الموصل بين
الجانين .. وبرر موقفهم العجول هذا ،
وجرأتهم في العبور ركضاً .. بأنها مسألة
تتعلق بالسرعة ، كما أنه قال لنفسه :
جسور المارة ضيقة ومسورة ، والمرء
يصعدها متعباً ، وينزل منها ذليلاً ..
كأنما يتجه الى سرداب .

بينما يكون عبور جانبي الشارع
سهلاً ، وتتسع الرؤية لأفق الخضرة
والماء .. وأدرك تماماً مدى تغير نظرتهم
للشارع الذي يوازي القناة .. وحاول أن
يعرف بدقة متى حصل هذا التغير ..

وطال الصمت .. فسألته : بماذا
تفكر .

أجاب : بهذا النهر الوديع الذي يفصل
ضفتين وصفين للأشجار وشارعين ..
قالت : وما علاقة هذا التفكير
بحديثنا ؟

أراد أن يوضح لها الأمر ، غير أنه
سكت خجلاً .. عندما رآها تنظر الى
عقارب ساعتها .. ثم تستعجله للعودة
الى بيتها .. فالأهل يحددون لها زمن
الخروج وزمن العودة .. زمن يملكونه
هم .. وفقه يحددون استقامتها واستقامة
شقيقاتها .. وأسرع عائداً ..



نفس الشارع والبيت والدائرة ..
نفس الوجوه .. نفس الطعام والهواء
والملل ..
نفس الصداق والقلق والحزن
الثقيل ..

نفس الليل الساهر .. نفس سواده
وتستتره .. نفس أصوات ضفادعه
وصراصيره .
نفس السكرارى .. والأغاني
المبحوحة .

نفس العتاب والضجر وادعاء المرض
من قبل زوجته .. نفس شكواها من

الأولاد ، ومن ضياعه .. ومن تأمله
وقراءاته وصمته .

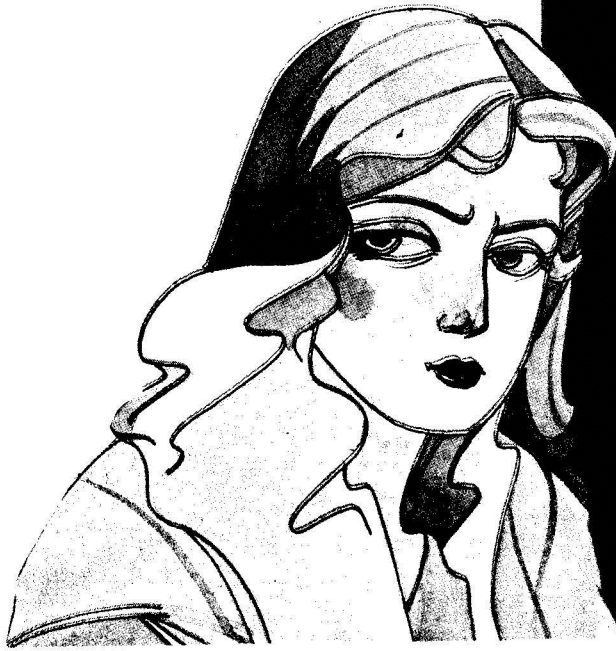
نفس أخبار الدمار في العالم .. كما
تتناول الاذاعات العربية والأجنبية . كل
الأشياء تكرر نفسها في أيامه ..

إلا أن هذا اليوم .. والمساء منه
بالتحديد كان طارئاً ومفاجئاً له ، وغريباً
عن عالمه . فهو لأول مرة يكتشف بأن
الشارع الذي يوازي القناة بعد أن ودعته
تلك الشابة اللطيفة .. قد بات جميلاً ،
والليل مرصع بالنجوم ، وأن للنجوم
بريقاً .. وقلبه يضيء .. وأن البيت :
مكان الأمان ، وأن زوجته مريضة ، وأن
أولاده أحب اليه من قبل ، وأنه يألف
الصخب الذي يثيرونه ..

لا صداع بضايقه ، ولا ملل يحاصره ،
وليس هناك من طعام غير لذيذ ، ومن
عمل غير منشط لطاقتي الذهن
والحركة ..

وفي المساء التالي .. أخبرها بما
أحسه .. وأدركت أنه منشغل فيها .. في
حياتها وأوقاتها وأفكارها وبريق عينيها ..
وحزنت لذلك ، وفرحت لذلك ..

الحزن والفرح .. اعتملا في داخلها ،
توازيا وتناقضا وصار بينهما صراع حاد .
سألته : هل كنت تفكر في مسألة



قالت : هل ترى بأننا نسير باتجاه

واحد ؟

- لا .

- إذن ما الذي يجمعنا ؟

- قال : صدقنا . .

قالت : هل يكفي . . ؟

- يكفي .

- برهانك . .

- لأنه بات الاستثناء . . وأحياناً

المستحيل .

كان يريد أن ييوح لها بكل شيء دفعة

واحدة ، أن يقول لها عن انشغاله بها . .

وأن يراها دائماً . . وأن تراه هي أيضاً . .

- الزمن قصير . . هل نعود ؟

معينة .

- بالتأكيد .

- هل أستطيع أن أعرف ما هي ؟

- أنت . .

وما علاقتي . . ؟

بدا حائراً للوهلة الأولى . . إلا أنه

استجمع شجاعته وقال :

- ألم تختاري . . ألم تقولي : اثنان . .

في مواجهة تيار المضاعف .

- هل تعتقد أن هذا اختيار . .

- اختيار ومبدأ . .

وفكرت فربما يكون قد بيّنت لها أمراً ،

وأن يقول هذا فحسب . . دون أن

يعنيه .

آلمته كلمة العودة ، أحس أنها افتراق عنه ، إنه يراها هذا المساء ، وربما لن يراها غداً . زمن قصير يراها فيه ، ويحس بوجودها السعيد .
- الوقت يهرب سريعاً . .

قال ، فابتسمت : - أنت تريد أن يتحول اليوم إلى ٤٨ ساعة . . وأنا أيضاً أريد هذا .

- ما دمنا نريد هذا معاً . . لنفعل المستحيل . .

- لا يمكن . . لأن المستحيل . . مستحيل . . نحن لا يمكن أن نسير معاً باتجاه عقارب الساعة دائماً . .

حين ودعها راح يفكر :
- للشارع الذي يوازي القناة . . امتدادان طويلان متعاكسان .

معاً ، كل يسير على استقامة شارع . ومعاً ، تجمعهما رقعة الأحاسيس . . رقعة الماء على جانبي الضفتين .

ومعاً ، تكون الحياة أبهى وأجمل . ومعاً ، يحسان بوطأة الأشياء حولهما . . وبأنها محطة حزن وفرح . . حزين أن تكون له زوجة وأولاد . . حزين أن لا يكون لها كلياً .

حزين أن يعرفها في وقت متأخر ، وليس بإمكانها أن تلغي هذه المعرفة .
حزينة أن يكون بهذا الصفاء ذهنياً ، وأن يناديها بصمته . . أن يحبها بصمته .
يكفيها صدقه ، ويكفيه أن تحترم الصدق فيه .

يسيران باتجاهين متعاكسين : رجل متزوج يفهمها أكثر من كل الرجال ، وفتاة يزهر فيها ربيع الشباب . . من حقها الانشغال بشبابها ومستقبلها .

- ما الذي نفعله في يوم طوله ٤٨ ساعة ؟
- نعمل ونفكر ونحب . .

العمل والفكر . . سيأخذان حصّة الحب !
- القيمة الأمثل في العمل والفكر . . لا تقوم إلا على الحب .

وتأملته بفرح وقالت : أنت مثل جبل لا تلين .

- لا . . أريد أن أكون مثل جبل .
- أقصد أنك تتوفر على الثبات . .

أحزنه أن يكون جبلاً في عينها . . فقد كان يكره الجبال في شموخها وكبريائها في حين تطأها الأقدام ، ومع أنه يدرك بأن تلك هي حالة الجبال كما أرادت لها

الطبيعة أن تكون .. إلا أنه يفرض
استسلام الجبال .. ذلك أن البعض يمكن
أن يصبح جبلاً بسهولة ، وأن يجعل
الآخرين يتعاملون معه من هذا
المنطلق ..

وفي تلك اللحظة شغلته أمنية أن يكون
جبلاً . . شرط أن تكون له أجنحة . .
أعلن لها أمنيته . ابتسمت . قالت :
- عدنا الى المستحيل .
- أنت تضعين المستحيل قدامك .

تلك حقيقة .. لا يمكن لليوم أن
يصبح ٤٨ ساعة ، ولا يمكن للجبل أن
تصبح له أجنحة ، ولا يمكن لامتداد
الشارع الموازي للقناة أن يلتقي
بلاخر ... و ...
واستعجل الاجابة .. كان يخاف أن

□ □

[illegible]



الوظيفة الساعة

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

للكاتب الفرنسي : جوفارينا
ترجمة : د. حامد طاهر

أصل إلى الوزارة ، لا يكون عليّ إلا نصف
ساعة فقط تأخير ! آخرون يكون عليهم
ساعة . الرؤساء أنفسهم لا يصلون قبل
الساعة الحادية عشرة .

في الشارع ، وفي مواجهة المنزل ،
يوجد « بار أمريكياني » . في العادة ،
عندما أخرج في الصباح ، تكون واجهته

أسكن في قلب مدينة القاهرة . شارع
المدايع . منذ وقت ما ، أعتقد أن الشارع
قد تغير اسمه . لماذا ؟ لا أدري . لكن
الناس استمروا يسمونه المدايع . هذا أكثر
راحة .

كل يوم ، أغادر المنزل في الساعة
الثامنة . أحيانا في الثامنة والرابع . عندما

الحديدية مغلقة . الواجهة كلها سوداء .
وفي بعض الأحيان ، يخرج
« الجرسونات » صناديق الزجاجات
الفارغة . أما اليوم فالواجهة الحديدية
نصف مرفوعة . وهناك ورقة من الكرتون
معلقة في الواجهة لم أرها بالأمس .
أقرب . أقرأ :

« مطلوب شخص حسن المظهر لوظيفة
سهلة بأجر مجز »

إعلان مضحك . أعود مسرعا إلى
الرصيف . إنني كثيرا ما أتجول في الصباح
أقوم برياضة المشي ، وخاصة عندما
يكون الجو ملائما . لا ينبغي أن أصل إلى
عملي متأخرا عن العادة . وظيفة سهلة .
لا بد أنها مثيرة . أجر مجز . كم يمكن أن
يدفعوا لهذه الوظيفة السهلة ؟ أعود ناحية
« البار » الأمر يستاهل المحاولة .

الصالة طويلة . ضيقة . خالية
تماما . إنها مقبضة . بار فارغ . كل هذه
الزجاجات التي تلمع تحت الأضواء .
تبدو الآن رمادية ، ومتسخة . وهذه
المنضدة الطويلة الفارغة ، لا أحد ينحني
فوقها . وهذه الثريات العالية جدا
مضحكة .

هناك شخص بالقرب من الخزينة .
سيدة .

— أريد أن أرى صاحب المحل .

تجيب السيدة :

— أنا صاحبة المحل . لأي موضوع ؟

— بخصوص الاعلان .

السيدة تتفحصني - ترمقني من الرأس
إلى القدم .

— يبدو عليك فعلا أنك حسن المظهر .

هل تتحدث الانجليزية والفرنسية
والعربية ؟ أنا أعتقد أنه يمكنك أن تشغل
الوظيفة .

— والعمل يا مدام .. مم يتكون
بالضبط ؟

— إدارة الاسطوانات ..

لقد قالوا لي دائما إنني حسن المظهر ،
وقد انتهيت بتصديق ذلك . لكن إدارة
الاسطوانات .

— أنا لا أفهم تماما .

تشرح لي السيدة :

— عندنا هنا « مانيا تيفون » (جهاز
اسطوانات) كهربائي . ومهمتك أن تختار

الاسطوانات ، وتضعها على الجهاز عندما يعمل . .

الواقع أنه بالنسبة لوظيفة سهلة ، ليس هذا صعبا على الاطلاق . لكنني نسيت سؤالاً هاماً . وبقدر كبير من التعثر والخجل سألت :

— وبالنسبة للأجر « يا مدام » ؟

— خمسة عشر جنيهات في الشهر . . خمسون قرشا في اليوم . هذا أجر طيب ستعمل من الخامسة عصرا حتى العاشرة مساء . كل أيام الاسبوع ومن النادر جدا أن ترحل بعد العاشرة مساء . انه عمل سهل . ثم إنه سيكون لديك علاوة على المرتب الشهري : بقشيش الزبائن .
يؤسفني هذا . أحس بالعار .

— أشكرك . . سأفكر في الأمر . إلى اللقاء « يا مدام » .

ها أنا في الشارع . في اتجاه الوزارة . منذ خمس عشرة سنة وأنا موظف . مرتبي لا يتجاوز عشرة جنيهات وعدة قروش بالضبط . لأنه ينبغي أن نحسب الاستقطاعات والضرائب والايجار وكل المصاريف الأخرى . إنني أعمل من الساعة الثامنة صباحا إلى الساعة الثانية

ظهرا . حقيقة لا أقوم بعمل كبير ، لكنني لست أحمق . إنني محترم . يلزمي مع ذلك أكثر من عشرة جنيهات في الشهر . أنا محترم في الظاهر فقط . أعني كثيرا بملايسي . هذا حق . قمصاني قلبت ياقاتهما وأكمامها . حتى ذلك القميص الذي ارتديه يبدو أنه نظيف ، لكن ياقته قد استهلكت من الداخل . يجب القاءها بعد غسلة أو اثنتين .

عشرة جنيهات في الشهر . وقريبا جدا أبلغ الأربعين . يلزمي شراء رباط عنق جديد . ذلك الرباط الأزرق الذي رأيته في الشهر الماضي في شارع قصر النيل من الحرير الطبيعي ثمنه ٢٥٠ قرشا . يلزمي عمل ذو أجر مجز . خمسة عشر جنيهات لادارة الاسطوانات . . هذا غير ممكن .

ها هي الوزارة . لاشك أن تلك الجولة أراحتني . الساعة الآن التاسعة تقريبا . ماذا سيقولون لي ؟ بماذا أجيبهم ؟ هل سيجرؤون على أن يقولوا شيئا ؟ إنني أعمل كثيرا بالنسبة لعشرة جنيهات في الشهر . إلى متى أظل أجدف هكذا ، وأسبح في هذا الصمغ ؟!

ما أقدر هذا الحي ؟ شوارع الضيقة الجو اليوم مليء بالرطوبة . وبصعوبة أكاد

أستشق . ها هو مكتبي .

— صباح الخير يا سادة .

تحية انتصار متحررة . لا ينبغي أن يكون الإنسان مخلصا . لا أحد يستاهل . لكن يجب أن يأخذ المرء حذره . وألا ينخدع . ضحك قوي بدون سبب ، ومن وقت لآخر ، أفكر بعمق ، متخذاً مظهراً جاداً . وفجأة .. مظهر الأبله المشغول جدا ..

من وراء الملفات ، أنظر حولي . دائماً نفس الوجوه . من المؤكد أن الحال لا يكون كذلك في بار . دائماً نفس الجدران . رؤوس غربان وقرودة وبجع وبوم .. رؤوس صلعاء ، ووجوه نحيلة ، بائسة ، منهكة . . . طيور مرتجفة من الخوف .

— لماذا وصلت اليوم متأخراً ؟

— كنت مريضاً ..

اشكروني مع ذلك أنني جئت . أما الزميل الذي يجلس إلى جوارى ، فإنني أقص عليه حكاية الاعلان . لا يريد أن يصدقها . لا أعطي له العنوان . ربما يكون طامعاً فيها ، ويأخذ مكاني .

إذا عملت في هذا « البار » ، فإن ذلك لن يضايقني في شيء على الإطلاق إنه في مواجهة المنزل . يكفي أن أهبط السلام . أية حبة ضيقة أعيش فيها ؟! لقد ولدت مثل دودة ، وكبرت مثل خنزير ، ومن قبل أن أبلغ العشرين وأنا أخرج هيكلي على الأرض . وذات يوم سأموت . سأموت دون ضجة . ودون طبول . وحيداً . في الصمت . كطائر . لا أحد يعلم بموتي .

خمسة عشر جنيها للعمل بعد الظهر . إن هذا يجمع لي بخمسة وعشرين جنيها في الشهر . إنني في كل صباح أسأل نفسي عما أفعله خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة . أي سعادة تحببها لي الأربع والعشرون ساعة ؟ لا شيء . لا شيء على الإطلاق !

وفي المساء أنام ، أنام وحيداً ، مثل حيوان ، من التعب . أتلاشى في الظلام . لحسن الحظ أن النهار يكون دائماً أفضل . لكن بعد ذلك ؟ بعد عشر ساعات ، أبدأ في الاحساس بالملل . العيون خادعة . والناس الذين يتسمون مزيفون . ابتساماتهم مبتذلة .

لقد أوقعوا علي في العمل عقوبات كثيرة . كم ؟ عدم انتظام في العمل .

تأخر عن المواعيد الرسمية . افتقاد احترام الآخرين أما الزيادة في المرتب فلم أرها أبدا .

إدارة الاسطوانات . هذا أمر معقد . الموظف الذي يجلس بجواري سخر مني . قال لي :

- هذا طبيعي . ستصبح رئيس « الأوركسترا » في « البار » !

حقيقة أن الموسيقيين يتقاضون الآن جنيهين وثلاثة وخمسة في الليلة . لكن خمسة عشر جنيها في الشهر : هذا ليس ممكنا . لابد أن في الأمر شيئا ، ولم تشأ « المدام » أن تصرح لي به .

ربما يمارسون الدعارة في ذلك البار ؟ كلا . . فقد كان في مقدوري أن أعرف . لقد مر علي الآن ما يقرب من ثماني سنوات وأنا أسكن هنا ، تماما في مواجهة البار . ثماني سنوات لم أتلق فيها علاوة من العمل . كان ينبغي أن أحصل على جنيهين علاوة في السنة . وقد توفيت أمي منذ وقت طويل . وأبي كذلك توفي منذ عامين . وأنا دائما هنا ، في هذا المنزل . نعيش كلنا معا ، إخوتي وأخواتي ، متكومين بعضنا فوق بعض .

ماذا آكل عندما أعود ؟ أيضا كوسة بالبصل ، وصلصة الطماطم . إنني أقشع من الدهون ، ومن صلصة الطماطم ، ومن البصل . ولا أحب الكوسة . عندما كنت صغيرا ، لم أكن أستطيع ابتلاعها . . ولم أكن أستطيع أن أفعل شيئا .

بعد مغادرتي العمل ، اشتريت بخمسة قروش « جبنه رومي » . لن أكل الكوسة . لكن مثلما في العمل تماما : نفس الوجوه في المنزل . على المنضدة لا يتكلم أحد . ولكي لا نفسد على أنفسنا الجلسة ، ينبغي علينا أن نجعل الطفل الصغير يتمخط . وهو دائما يتمخط . إنه ابن أخي . لم تعد لدي الشجاعة في العراك مع أحد . الجو حار . متى يأتي الشتاء إذن ؟

في الساعة الخامسة ، أنزل مسرعا . أدخل « البار الأمريكي » . ها هي صاحبتة . وإذا لم تكن قد غيرت رأيا ، فماذا ستقول لي ؟ ربما تنتظر مني خدمات أخرى غير تلك التي حدثتني عنها في الصباح . كلا . . إنها ليست من هذا النوع .

— مساء الخير يا مدام . . لقد فكرت .

تتفحصني مرة أخرى من الرأس إلى
القدم .

— أعتقد أن العمل سيناسبك . . ثم . .
إنك تتكلم الفرنسية جيدا .

مارست عملي في نفس اليوم . توجد
٦٠٠ اسطوانة في المجموعة . « تانجو »
يوناني ، أرجنتيني ، عربي ، « فوكس »
ترو ، « فالس » ، « تينوروسي » ،
أغاني فرنسية وإيطاليا ، عبد الوهاب ،
و « أوبريتات » . . بالتدريج ، أصلحتها
وصنفتها . إنني بالطبيعة أحب النظام .
وأحب الموسيقى كذلك . بالنسبة الخمسة
عشر جنيها في الشهر . ليس هذا عملا
صعبا .



الكمنجة في المساء .

ها هو العجوز الذي يشرب البيرة
مازال هنا . إنه لا يشرب غيرها . ثلاث
زجاجات في الليلة . مع كل زجاجة ،
يعيد يطلب اسطوانته المفضلة . دائما هي
هي . إنها من أجل حب قديم . هكذا
قالت لي عنه صاحبة العمل .

صاحبة العمل جادة جدا . وباستثناء
الأشخاص ، الذين يجب أن نخرجهم من
البار ، من وقت لآخر ، تسير الأمور على

حين يطلب مني شخص أغنية ما ،
أضع له على الجهاز أغنية أخرى قريبة جدا
منها ، عندما لا تكون الأغنية المطلوبة
حاضرة لدي . مثلا : العشاق يطلبون
« التانجو » و « التانجو » هنا منذ ستة
أشهر . أما سكارى العاشرة مساء
فيحبون أن يسمعوا « المارشات »
العسكرية . . وهؤلاء يدفعون أعلى
بقشيش . والعشاق أيضا . . إنهم يحبون

قصة قصيرة
□□□□□□□□□□□□□□□□

« رحلة الانتحاب »

مريم حـ

هذا الليل يأتي . . فيطوي كدرات
النهار الذي صار بغیضا الى نفسي كما
الرهبة التي كان يحملها الليل الي . . أيام
ليس يتقن الخداع . .

« الليلة ياسيدي يتجدد الرحيل . .
وينبتق وجه جديد من وجوه الزمن المفلع
بالسواد » بعد قليل سيأتي . . وسيجبرني
على اغتصاب بسمة تتظاهر بتحدي
تظاهرات المد الفضي المحجوز في
مقلتين . . وسيجبرني كعادته على أن
أخلق نبرة تفاؤل أزين بها كلماتي المقتضبة
التي اضطر أن أبادله اياها .

وقف بباب الغرفة كزائر مقبرة في ليل

كان للفرح امتداد الصدى على حوائط
الزمن ، وحين يأتي الليل تحلو المناجاة ،
أيتها القيثارة الحنون . . صبي على الفؤاد
من سحرك سحرا واحليني في عوالمك
الشذية . . احليني الى حيث الذكرى
واللاذكري . . الى حيث الوجود
واللاوجود وخذي بي بسحرك الحالم نحو
غصن كان يورق ما بين الصدر
والخاصرة . . ويناغي أهدابا راعشة في
غمرة ضحكة كانت تجلجل في مساحات

موحش .. وامتد ظل قامته مسافة قريبة
من مقعدي فكان للظل عمقا أكبر في
ديجور اللون الأسود ..

اقترب قليلا ..

« لا .. أرجوك دع للأموات سكونهم
وارحل من هنا فوراً » .

رفع يده صوب زر الازياء المثبت
قرب الباب ..

« قاسية يدك .. بل هي أفسى من
صخرة لازالت جاثمة على خد زهرة حتى
اختنقت أو كادت » .

ما كاد يرفع يده عن زر الازياء حتى
كانت الغرفة قد استحالت الى محيط من
نور .. وبدأ يخطو خطواته الثقيلة الموزونة
نحوي ويفتعل كحة ينهني فيها
لوجوده ..

على كل سفح زهرة تختنق وبين أنياب
العاصفة نبتة تتلوى ألماً وأخرى تقتلع ..
ولازلت أحمل روحي على كفي
واداريها .. فبعد كل لحظة اختناق بين
كفيك استنشقت نسمة فلا تبرحني
الحياة ..

« لماذا تحيئني مثل اقتراب الموت ؟

فلازالت روحي تعشق الحياة ولازلت
أعتبر صفة الخد لمسة حنان في زمن
احتضار العواطف والمشاعر المختنقة » .

لازال يواصل زحف جسده المربع
فوق صدري .. وكلمة اقترب خطوة ..
لسعتني حرارة أنفاسه القاتلة فأرتجف
ويتكور جسدي في المقعد .. هوذا
يقترّب أكثر ، وابتسامه حمقى تعلو
شفتيه :

— لم يخطر لي أن تكوني يقظة حتى هذه
الساعة المتأخرة من الليل خصوصا وأنتك
وحيدة ؟ وحيدة ؟؟ لأهني نفسي اذن
باعتراؤه بفشله وغبائه .. فأنا لست
وحيدة وهذا الليل حاضر يغمر ذاتي ..
ليتة يعلم أن وجوده صار وحدة قائمة حتى
ساعة مغادرته ..

— كيف أنت الآن ؟

— الحمد لله . « أجبت على مضض »
هاتان العينان ليستا اثنتين .. انها
عيون كثيرة .. جسده كله يبدو لي عيونا
تحملق فيّ بانبهار .. ولكم أخشى تلك
العيون التي ما لبثت تحملق فيّ منذ رأيت
للمرة الاولى في منزل احدى القريبات التي
قدّمتها اليّ قائلة :

— انه السيد وائل .. أحد كبار رجال الأعمال في المدينة ، وصديق حميم لزوجي هزرت رأسي مرحبة به .. بينما أردفت قريتي :

— ربما أنك لم تسمعي باسمه من قبل .. لأنك تعيشين في جو القرية الخائف .. كان بودي أن أعترض على الجملة الأخيرة من حديثها لكن الحياء عقد لساني فلم أتفوه بكلمة كان بودي أن أقول لها أن ملايين الوجوه الغريبة لا تعدل ابتسامة تشع في وجهه .. ارتعد جسدي وأنا أراه يقترب أكثر .. يتودد أكثر ..

لماذا تخافين مني وتوسعين الشقة بيننا يوما بعد يوم ؟ ..

« أعرف أنه ليس من حقي الاعتراض على ارادتك .. أعرف أنك دفعت ثمن كل ضفيرة من ضفائري أعرف .. حتى هذا الثوب الذي أردتديه ليس لي .. أعرف أنك تملكني حتى أخمص القدم . هذا التمثال الأثري الرائع ، وهذه الأريكة الفخمة ، وهذه اللوحات النادرة المعلقة على الحائط .. وكذلك أنا .. دفعت الثمن وملكت » .

— لماذا لا تجيبين ؟ هل وصل بك الأمر

حد ازدرائي الى هذا الحد ؟!

— ليس عندي ما أجيب به . « رددت » .

— لست أدري أي ذنب جنيت لاستحق منك كل هذا ...

« من المذنب فينا .. أنت أم أنا ؟؟ ربما أنت .. ربما أنا .. وربما هو .. حين لم يقدر على مقاومة فقره . فقد وجد نفسه أمام هرم يتعب لمجرد النظر اليه .

كان طبيعياً أن تنتصر أنت عليه وأن تسلبه حقه بنذالة .. وكان طبيعياً أن يمعن نظره في المدينة ليبحث عن سر انتصارك عليه .. وعندما عرف السر أراد أن يكون همما مثلك .. وربما يكون قد فكر بأن يسلب الآخرين حقهم .. لكنه تاه في عتمة المدينة .. » .

هذا الاختناق .. هذا الاغتراب .. والمدينة التي لا ترتوي بغير عذاباتي .. وبغير أنين المسحوقين تحت عجلاتها الخارجة عن زمن الوعي ..

« المدينة » ؟ ويزداد عمق الجرح ويصير الألم صرخة ..

يا وجه قريتنا المضمخ بعرق جبين



أسمر ويد معروقة . . أوتسمع أوجاعي ؟
أم أن الموت زحف الى محياك فما عدت
تصغي لنداءات المسحوقين في كل منفى لا
تنمو على أرضه زيتونة سلام ؟ ويا هذا
النفي الذي يجثم كابوسا مرعبا على
قلبي . . لماذا لا تكف عن عطايك فما
سلبته مني أكبر . . أكبر من كل العطايا
مهما عظمت .

كدت أنسى أن هناك من يجلس
بقربي . . الى أن سمعت صرخة الغضب
تدوي في انحاء الغرفة . .

— كفى صمتا واسمعيني جيدا . .

« كان صوته شذيا يأتيني كأصداء الناي
وقت الغروب . . ولن أغفر للمدينة يوم
سلبته ليكون في عداد المتوجعين بسياط
الغربة . .

يداه القاسيتان تهزان كتفي بشدة حتى
لأحس بانخلاع مفاصل جسدي عن
بعضها وصوته يتهدج بما أعياه ولا أعي . .
غير أن الغضب كما يبدو قد بلغ ذروته . .
حتى تكاد عيناه تشاركانه اختراق حواجز
الصبر . .

هذه هي المرة الأولى التي تطاوعني فيها
الدموع فتخرج عن صمتها المعهود لتروي

حكاية ألم يضرب بجذوره الى عمق المسافة
ما بين صدر قريننا الوادع والقلوب
العتية . .

عيناه تفتريسان وجهي الغارق في
الصمت . . وانتحب . . أنتحب
ويواصل صراخه وحرب الاستنزاف حتى
آخر قطرة في مقلتي . .

لماذا تصوير الذكرى ألما كلما حضرني
وجهه المكسو بغبار المدينة ؟ ولماذا تصر
هذه المدينة الغريبة على أن تسلب مني كل

شيء حتى نفسي ؟؟ وهذا الرجل الذي
يجلس بمحاذاتي .. لماذا لا يكف عن شن
حرب الاستنزاف لفؤادي كلما دخل
المنزل ؟ ..

ها هو ينهض بينما بعض الارتياح
يتسرب الى نفسي ..

قبل أن يخرج لم يفته أن يرمقني بنظرة
غريبة كادت أن تضرم النار في جسدي
المرهق .. وتجعلني أكدا أعلن انتصاره
على ضعفي .. حين يصير الدمع نهرا ما

بين عيني وشفتي المرتجفتين ..

قسط أكبر من الارتياح غمرني حينما
أدار وجهه الغاضب متوجها نحو الباب .

رفع يده صوب زر الاضاءة ..
وضرب عليه بشدة تكشف عن حنق في
نفسه عظيم .. وعاد سكون الليل يغمر
مقبرتي .. وعاد الليل الرفيق يؤنسني
لأواصل مناجاتي ورحلة الانتحاب التي لم
تنته ..





قصّة قصيرة حسني سيد لبيب



ARCHIVE

في الصغر، كانت الظلمة تخيفني، أبوي لأنفه الأشياء، وأوهي الاسباب.
ترعبي، فيرتعد جسمي وأخاف من فلا بد إذن من الحذر الشديد. لم أرح
الوحدة يقشعر شعر رأسي عندما تضطرنني الظروف أن أكون وحيدا، أو أتواجد في
مكان مظلم. وفي الكبر، انقلبت إلى الضد، فأحببت الوحدة، وعشقت
خفوت الضوء، وانتشيت بالظلمة. قد تزاحم الناس من حولي وأزعجتني
الأضواء المنبعثة والمنعكسة، وتمنيت الهروب، ولكن كيف؟
مازلت أذكر شيئا من طفولتي. لم تكن محبة. كنت طفلا مضطهدا. يوبخي
يا له من صديق أنا في حاجة إليه !..

الصديق عليّ، أعترف أنه أقدر مني على
التصرف. كنت أُلجأ إليه وقت الأزمات.
أغواني بالاستماع فتنتال الكلمات،
وغالبا ما اثير معه قضية شائكة، تسبقها
علامات استفهام وحيرة. كنت أرتاح
لمجرد الحديث مع شخص ينصت لما
أقول.

وفي يوم، التقيت بوفيق. شاب ذو
صلات عديدة. صدمني قوله:
- من هم أصدقاؤك ؟
- لي صديق اسمه اسماعيل.
هز رأسه مستنكرا:



إذاكر معه وألعب معه. ولا افارقه إلا حين
أوي إلى فراشي. انزعج أبي، ولطممتني
عباراته القاسية، بأن الاختلاط أمر
سيء. وتعهد أن يحرمني من صديقي،
ويكبل ارادتي. أوهمني أبي أن الاختلاط
يجلب المشاكل، كما حذرني من تعلقي
الشديد بصديقي، وأشار إلى ضرورة
الاعتماد على نفسي. أنا لم أعتمد عليه،
لكنه كان ضروريا في حياتي. أحس معه
بالراحة. ألا يبدد وحشة المكان؟

كنت أوي إلى فراشي، فتأتيني أحلام
الليل المرعبة، وأرى أشباحا مخيفة ..
يتعملق منها شبح بجناحين كبيرين،
ويركض نحوي، فأعدو بأسرع ما
أستطيع، لأنجو من يده المخيلية التي هي
قاب قوسين أو أدنى مني، وأصبح صياحا
كالصراخ، وأفيق من نومي، فتهدأ نفسي
وتأمن. لكنني احدث في الظلمة، ثم أذكر
نفسى بالغطاء، مخبئا وجهي، وأمكث على
هذه الحال طويلا الى أن تطوف بمخيلتي
صورة صديقي .. فتطمئن نفسي
وأغمض عيني وأنام.

كان صديقي، ضروريا في حياتي.
كبرنا سويا، ما زال أبي ينصحني بأن
أعتمد على نفسي. وما زلت أكبر حق

- فقط!

احسست اني قزم. لو يعلم وفيق،
صديقي ملاماً دنياي. نظراته تهزأ مني ومن
سلوكي في الحياة. احسست اني انهزمت
وتراءى لي اسماعيل انسانا يرقب
خطواتي، يكبلني، وأنه بقعة مظلمة في
ثوبي. او أنه المرأة التي أرى فيها عيوي!
انقلبت احاسيسي نحوه، هذا الانقلاب
المفاجيء الذي لا يستطيع أن أبرر سببا
واحدا له. لكنه أسقط في يده ذلك
الاحساس الحاد بالألم. وتغيرت نظراتي
لاسماعيل. فهو يتطفل على حياتي،
يدفعه الفضول إلى معرفة كل شيء عني.
يستحطني صمته على الكلام، على المزيد
من الكلمات. ومن الكلمات أستولد
كلمات أخرى. وطفق لساني يتحدث
سنوات طوالا، احلل مشاعري، كأني
جالس على كرسي اعتراف قبالة صديقي،
وأعري ذاتي أمامي. وهو لم يبادلني
بحديث مماثل عن نفسه. كم كنت غفلا
اذ صدقت أنه يؤثرني على نفسه، ولم اتبين
انه فضولي.

صدقت يا أبي حين قلت لي: اعتمد
على نفسك. لم أتبين مغزى النصيحة
سوى الآن. أضعت سنوات من عمري،

دون أن أعرف مصلحتي! فوجيء
اسماعيل بغضبي وانتقادي له.
وانسحبت في هدوء، عازما على بدء حياة
جديدة، وعقد صلات بأخريين. لابد أن
أنفتح على الناس، كل الناس. . بدل
القمقم الذي حصرت نفسي داخله.
وداعا يا اسماعيل. وداعا يا صديق
الانسحاق والاحباط والألم! ومرحى
بالحياة الجديدة الباسمة.

رافقت ثلة من الزملاء. وعرفت في
سن المراهقة اشياء لم اكن أدريها. وطدت
صليتي بوفيق، فأعارني كتباً تتحدث عن
الجنس. قرأتها بنهم، حيث فتحت لي
نافذة على أرض جديدة. وشاقتني
التجربة ولكن كيف السبيل؟. تابعت
الافلام السينمائية، اشاهد منها ما يعتمد
على الاثارة الجنسية. وبحثت عن مجالات
بها صور عارية، واشتريتها بأي ثمن.
وتلصصت على جارتي، دون أن تراني،
ومن يومها ظللت أسير جسد المرأة.
وصارت الأنثى - أي أنثى - شيئا حادا في
حياتي. لكني محروم، لم اجرّب. وتذكرت
صديقي القديم، الظل الذي كان
يتبعني، او ذلك الذي كنت ظله.
صديقي لا يعرف دنياي الجديدة. وإن

بهم . وحياة ثانية أقضيها مع صديقي ،
احس خلاها انني افضل من صديقي .
أظل احده عن العالم الخارجي . ويعمه
سرور بما أروي . اكتشفت كذلك أن
اسماعيل يعيش في عزلة . كيف لم أتبين ،
وأنا صديقه منذ سنوات . يتعرف
اسماعيل على العالم الخارجي من خلالي .
انهينا الدراسة الجامعية . وأثر العجلة
وتزوج من امرأة اختاروها له ، بينما
عاندت نفسي ، ومكثت طويلا ابحث عن
زوجة مناسبة . انقطعت صلاتي
باسماعيل . احسست أنه رسم لنفسه
طريقا آخر . لزوجته سلطان عليه . لم نعد
نتقابل سوى لقاءات عابرة ، او لقاءات
صنعتها الصدفة . وكل يمضي لحال
سبيله .

عاندت فكرة الزواج . الزوجة المناسبة
لم أكتشفها بعد! . بنات كثيرات عرضن
عليّ ، وأجدهن غير مناسبات ، او اني غير
مناسب لهن . وتقدم بي العمر ، إلى أن
اهتديت إلى واحدة ، فخطبتها . احسست
انها ترضي الغرور الذي بنفسني . لعبت
بعواطفني ، وأسكرتني بكلمات حب كنت
أظن أنها . كنت في اشد الحاجة إلى لقاء
اسماعيل ، لكنها فترة مريرة . فقد عشت

كان على علم بصداقتي لشبان في سني ،
وذوى ميول وأهواء مختلفة . أحدهم كان
مثل (دون جوان) دائم الحديث عن
حيياته ! . وثان يدمن القراءة ، يطالع كل
كتاب يقع بين يديه . وثالث يلذ له
الحديث عن تجاربه الجنسية بإباحية ولا
يستحي من شيء ، وإن كنت اشك في
صدق ما يقول ، ولا بد أنه يعتمد على
الخيال . ورابع يلذ لي لعب الطاولة معه .
بعد أن قاطعت اسماعيل شهورا
قليلة ، شدني الحنين اليه ، فاجأته بزيارة .
معلنا له بدء صفحة جديدة . رحب بي .
وتفاخرت بما عرفت من أصدقاء ومن
خبايا . . انها حياة جديدة يا اسماعيل .
وتعملقت امامه . دنياي زاخرة بالحركة
والناس ، وديناه محدودة . تصاغر امامي .
احسست اني منفوش كالطاووس . حدثته
مزهوا عن الكثير مما عرفت ، واخفيت
عنه امور الجنس ، وكان يسمعني بغير
ملل .

اكتشفت بعد فترة أن لي حياتين . حياة
العزلة التي لجأت اليها ، وقد انفض من
حولي الأصدقاء . . كل مضى لحال
سبيله . كل صرفته مشاغله عني ، فعشت
وحيدا ، أخالط الناس ولا أوطد صلاتي

من الظلمة وبرودة الشتاء والضوضاء
والاضاءة المبهرة. خالطني احساس
بالمجهول الغامض الذي يمكن ان يغرز
نابه في لحمي . . أن يدمي جسدي . .
اهو الموت الذي اخاف ؟ . يالك من
انسان غريب. دبرت لقاء مفاجئا مع
الخل القديم. زوج قيده زوجته بمواعيد
ومشاغل. ذهنه ليس صافيا ليسمع ثرثرتي
عن تفاصيل حياتي! . حياتي لا تهمة الآن!
وواتاني احساس بالوحشة في هذه
الدنيا الواسعة. صدمت. قلت مازحا:
- ليت ايام الشباب تعود . . كنا نطيل
السهر حتى الفجر، ولا نمل الحديث في

كل شيء.

- كانت ايام . .

ويسهم جامدا. من جديد امازحه،
أذيب جبال الثلج الحائلة بيني وبين
الاقتراب منه:

- خضت التجربة قبلي. قبل رأيك في

الزواج؟

قال ببرود شديد:

- كما ترى؟.

يغظني صمته. فبينما انا كثير التحدث
عن نفسي، كان هو قليل الاهتمام بالتعبير
عن نفسه. كنا على طرفي النقيض.

تجربة لا املك التباهي بها مع احد.
وثرت على نفسي. لماذا أحصر حياتي بين
قوسين؟ . ولماذا اعمد إلى سرد تفاصيل
حياتي لهذا الصديق؟ مسألة نفسية.
صارحت نفسي بهذا. ولكن هل يحق لي
التمرد على سلوك اعتدته منذ الصغر؟
وهل قدر لي أن احيا وأكون ظلا
لصديق؟. ان فارقتني، صرت بلا هوية،
او انعدم الظل ذاته، ام ان هنالك ظلا
بدون شيء يدل عليه؟ سخرت من
نفسي. لا بد ان اعتمد على نفسي، هكذا
قال ابي كلمته عندما كنت صغيرا. لكن
اسماعيل لم يفرض علي شيئا. قد اسرني
اسماعيل، باختياري!.. انه كالسجن
الذي يجب المراء ان يحبس نفسه فيه.
لماذا، والدنيا بهيجة من حولك، تصر على
أن يعيشها معك اسماعيل؟. كاشفت
نفسي، وحاولت ان أهرب من القيد.

اخرج مع هناء، خطيبي، أعيش
أسعد لحظات العمر. ثم اعود في المساء،
اريد أن أنقل سعادتي إلى صفتي. فأين
هو الآن؟. أيملك ان يحطمني، بالبعد
عني، لو نقلت هناء ما أحس به،
لسخرت مني، لا بد ان اقبر هذه المشاعر،
وأعيش حياتي. ولأول مرة احس بالخوف

اسماعيل شغوف بمعرفة اسرار الناس،
بينما هو شديد التكتم لأسراره، لا يوح
بها لأحد. غامض هو، ربما . . . ولعلي
اميل إلى الشرثرة.

ينبغي ان اتركه لحياته، وأبصر حياتي
بمنظار جديد. ولا داعي لهذه العشوائية.
خطيبي تحبني، تهتم بشئوني وتسعد اذا ما
قلت لها شيئا. ذات مرة حاولت ان انقل
لها احساسا ما، قلت:

- اشبه نفسي بمن يسير عكس التيار.
يعيش ضد ما يرغب . ان كانت له
مصلحة في السير نحو الشرق، اتجه إلى
الغرب. وان عرف الصديق لجأ الى
العدو !. واذا ما أسعده حب، روض
نفسه على تعكيره ، فينقلب إلى كراهية!
تضاحكت وقالت تداعيني:

- عجبني ! . .

- كائن غريب انا. بودي أن أحكي لك
عن هذا الضد الذي يناصبي العداء.
ولكن كيف السبيل وأنا لا أدري سبب
هذا الشعور.

شردت لحظات، ثم رسمت ابتسامة
ما على وجهها ، وأمسكت بكفي
تتحسس برقة وفي عينيها غنج . هناء انثى
تجيد فن الغزل. طبعت قبلة على جبينها.

تحسست مكان القبلة، وقالت في دلال:
- امنعك ان تأتي بمثلها.

اثارني ما قالت، فصممت ان آخذ
قبلة ثانية، وفي هذه المرة احتضنتها،
اعتصرتها بين ذراعي . عاتبتني، وكانت
فرحة. استأذنت قبل ان يفتضح أمري،
وانصرفت. وأخذت اذرع الشارع وقد
غمرتني بهجة مباغته. وعدت إلى فراشي،
وحيدا لا أجد من يشاركني سعادتي. لمن
أحكي ما حدث لي؟ تقلبت على
الفراش، استرجع مفاتن هناء: لذة
القبلة . . اغراء النهدين . . حلاوة
الشهد في رضاي . . ولكن! ما حكاية
(ضد التيار) هذه ؟. ايها الفيلسوف
الاحق، لماذا لا تعيش حياتك سوية مثل
خلق الله ؟

وفي يوم، جالست اهل خطيبي،
لتحديد موعد لعقد القران. افاقوني من
الحلم إلى الواقع، الفيت زوج اختها
يحادثني بطريقة لا تعجبنى. تميزت غيظا،
فتركت المجلس وانصرفت غاضبا.
هرعت هناء في اثري:

- لماذا تغضب؟.

كأنا تدينني.

- لا أقبل وصاية من أحد. . .

- لا تفترض اشياء لا وجود لها .

- تصبحين على خير . .

قلتها بجفاء وانصرفت .

عدت إلى فراشي، مببل الخاطر . لو
أن أبي اعتاد ان يحادثني، ينصحني . . لو
ان امي . . ولكن الجميع يعتبرونني الابن
البكر، العاقل الرشيد . . ولم يحاول احد
الاقتراب من عالمي .

كهلهم خبروني من الخارج . إلا
اسماعيل .

سأفرض الخطوبة وأنهى المهزلة . لا
أريد وصاية من أحد . وانتهى كل شيء
سريعا ، كاعصار مفاجيء . ولم يعرف
احد سببا مقنعا . واعتصرني ندم قاتل على
ما فعلت . وحين تراجعت محاولا رأب

الصدع ، اوصدت في وجهي الابواب .
اصبح بيني وبين هناء الف باب مغلق .
وعرفت حينئذ مرارة الاحساس الذي
يخالجنني بأن اعيش معاندا نفسي ، وأهوى
السباحة ضد التيار ، ضد ما أرغب .
هرعت إلى اسماعيل احكي له حكاية
التيار المعاكس ، فثار في وجهي . لأول

مرة اجد اسماعيل ناثرا ، لاعنا صمته
وتأدبه معي ! .

هل اغير ثوبي ؟ . كيف ؟ .

لماذا أتصرف بحمق ؟ . ايرجع ذلك
إلى كوني انسانا غريبا ، ام لأن
الحياة - تلك الحياة التي نعشقها - اشد
غربة مني ؟ !

اعتراني خوف لمجرد هاجس عابر
يذكرني بأن الموت قريب . خفت ،
ارتعبت . . ظلمة القبر اخافتني ، سأكون
وحيدا في ظلمة القبر ، بلا حس وبلا
حراك .

هل ثمة علاقة بين خوفي في الصغر من
الظلمة والوحدة ، وبين خوفي الآن من
الموت ؟ ! .

وعاد الشيخ الأسود ، وحشا كاسرا
يركض في اثري ، يحاول ان ينالني بسوء ،
ويغرز نابه في لحمي .

ويا أيها الصديق الذي ابتعد عني :
لماذا تفترق بنا السبل ؟ . اني في اشد
الحاجة اليك هل تحب ان تسمعي ؟ هل
تحب ؟ . هل تسمعي ؟ ! .



اليئة البغدادية

في نه وذج روالع

محمّد سهيل أحمد

ARCHIVE

خضير عبدالأمير . . عرفناه قاصا منذ الستينات ، وإن كانت بداياته في النشر ترجع الى ما قبل ذلك بقليل أو كثير . لقد تعرفت اليه شخصا ، فأدهشني تواضعه وبساطة خلقه . وكنت قبل ذلك قد تعرفت اليه قاصا من خلال قصته القصيرة المدهشة (عودة الرجل المهزوز) التي جعلها فيما بعد عنوانا لواحدة من مجموعاته القصصية . تلك القصة نشرت لأول مرة في ملحق جريدة الجمهورية البغدادية في أواسط الستينات ، مع أنه كان قد أصدر (حمام السعادة وقصص أخرى) في عام ١٩٦٤ .

وخضير عبدالأمير قاص متميز ذو أسلوب لا يحيد عنه : يعتمد البساطة وعمق الملاحظة والاهتمام بالرائحة الشعبية عناصر لكتاباتاته التالية (الرحيل ١٩٦٨) (عودة

الرجل المهزوز (١٩٧٠) (خيمة للعم حسن ١٩٧٤) - بيروت . (رموز عصرية) - رواية ١٩٧٦ . (الفارة) مجموعة قصص ١٩٧٩ . (الخطاب والعصفور) قصص للأطفال عام ١٩٧٩ . ومجموعة قصص قصيرة بعنوان (رياح شتائية دافئة) عام ١٩٨١ و ٢٤ قصة للأطفال والأطفال عام ١٩٨٣ بيروت . إضافة الى قصصه المكرسة لواقع الحرب العراقية الايرانية وافرازاتها الميدانية والاجتماعية .

عن الرواية

وروايته (هذا الجانب من المدينة) صدرت عام ١٩٨٤ . لم يحذ فيها (خضير عبدالأمير) عن مجمل توجهاته نحو البيئة البغدادية الصرف بخصالها ولحظات توترها ، بتناسقها وفوضويتها .

ان الرواية فن قد يبدو سهل القياد . ولكنه سهل وصعب في الوقت نفسه . انها اقتطاع من الحياة باستخدام الفن . أحاول التحدث عن الرواية من خلال المعايير النقدية التالية :

ARCHIVE

المكان ، الشخص ، البناء المعماري ، المرأة ، واللغة والحوار .

انها رواية مكان وهي رواية (النموذج) في آن معا . لتأخذ الجانب الأول : أحداث الرواية تدور في (العوينة) وهي واحدة من احياء (بغداد) ، بل انها تتوسط قلب المدينة المتنامي لتشكّل وحدة عضوية . ف (سيد علوان) وهو الشخصية المحورية الاولى في الرواية يلتصق بالعوينة حتى أقصى حدود الالتحام . ان السطر الأول للرواية ليبدأ هكذا : « سيد علوان وسوق العوينة صنوان لا يفترقان اذ اعتاد كل منها وجود الآخر ، وأن يشار الى كل منهما بالحضور الحقيقي لهما » .

تزخر فصول الرواية بوصف لأركان العوينة ، أزقتها ، وجوها الطيبة وجوها الشريرة . يعني القاص عناية فائقة برصد الحركة الصباحية لسوقها الذي (يحمل زحما انسانيا كبيراً) و « سيد علوان لا يستطيع أن يترك السوق والمكان الضاح بالروائح

الزنخة ، رائحة الطين الأزرق المتجمع والمتكون من فضلات الجاموس والبقالين ، ولا رائحة الجاموس نفسه الذي كان يقتعد السوق يعضغ طعامه بصمت ولا مبالاة»^(١) ثم ان الرواية تعد توفيقا مباشرا أو لا مباشرا لبيئة بغدادية ذات أطر هلامية ، في فترة زمنية محددة (هي فترة العهد الملكي في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات) .

والعونة كوسط بغدادى تتمتع بخصائص معينة ، انطولوجية وسايكولوجية . إلا أن الوجوه التي تعبرها كل يوم لا ترى بأسا في التفاعل مع أحداث الحياة اليومية لبغداد العاصمة . فسياحات سيد علوان وصديقه المثقف (بوياس) حيث سفينة العشق الشبحية الراسية ونزهات البغداديين ورحلاتهم القصيرة الى (سلمان باك) وحلقات المصارعة والحياة الليلية المتوهجة في بغداد : حانات ، دور سينما ، حلقات رقص ، أركان غامضة لممارسة العشق وأخرى للتبول وغيرها للمعان مدية أو طعنة خنجر . وخروج (بوياس) القريب من صفاته وروحه من مؤلف الرواية ، الى الدائرة الحكومية بعلاقاتها المستحدثة ذات التأثير الخانق وأجواء المظاهرات التي عمت شوارع (بغداد) احتجاجا على معاهدات النظام الملكي مع بريطانيا ، ومغامرات (سيد علوان) و (بوياس) في بيوت (الميدان) السرية ، منحت هذه الجوانب كلها بعدا بانوراميا لا حياة محلة وحسب انما لايقع مدينة بأكملها .

الشخص

« العالم كبير ولكنه

في داخلنا

عميق كالبحر »

(ريلكه)

نعم ، انها رواية شخصيات أيضا . قطباها الرئيسان : (سيد علوان) البغدادى البسيط الحسن الطوية و (بوياس) بتأملاته ، توحده ، وعشقه للمرأة . لكل من الشخصيتين خيط تنام يوازي الآخر قد يتقاطعان أحيانا (حيث يجمعهما

حدث مثل نزهة مشتركة أو حين يرتاب الأول في نوايا الثاني بسبب فخرية) ولكن من الواضح أن تصاعد الحدث المؤثر لكل منهما وانعكاس ذلك على حالتهما النفسية قد اتخذ مسارا مستقلا عن الآخر .

أما عن علاقة الشخصيتين الرئيسيتين ببعضهما والضرورة المنطقية لمسألة الاصطحاب هذه فقد أورد السيد نبيل ابراهيم العطية في استعراض له للرواية^(٢) رأيا غريبا فهو يقول (. . . ولا نلاحظ لدى أبي ياس أي تحفظ من عقد رباط الصداقة الوثيقة مع سيد علوان في حين يبدو مقنعا بأن هذا الطالب الفنان المثقف لابد وأن يحرص على صداقة أناس من صنفه وطبقته وفي الأقل فقد كان عليه مصادقة فنانين ممن يزاولون الرسم ومن هم في أعمار متقاربة مع عمره غير أن ذلك لم يحدث لسبب لا نعرفه . . .) .

هذا الرأي يمثل نظرة مسطحة ومفتعلة من لدن صاحبها ازاء طبيعة العلاقات الاجتماعية . من الواضح أن (بوياس) هو أقرب ما يكون الى المؤلف نفسه ، لا ريب ، ولو أن (بوياس) لم يخالط هذه العينات الاجتماعية المستلبة ويلتحم بهمومها وأحلامها لما تبلورت لديه نظرة للحياة متكاملة . أما عن صداقة الفنانين للفنانين ، فهي لا تحتاج الى مناقشة . ولكن اعتراضني يكمن في عملية الاقसार التي يفترضها السيد العطية . ان (سيد علوان) يمثل النقاء البغدادي الحقيقي الذي هو غمط من أنماط النقاء العراقي . . . وحياة (سيد علوان) لا تقل ثراء وتلونا عن حياة أي (مثقف) أو (رسام) . والتعليل النفسي الأقرب لمسألة ميل (بوياس) الى (سيد علوان) هو ذلك الطفل الذي يبقى في نفس كل انسان في ميله الغريزي للاختلاط بمخلوقات أكثر دعة منه وبساطة وفي ميله للانجذاب الى أي كائن آخر . رجل مبتسم ، أم حنون حتى وان لم تكن أمه ، طفل من أي لون وشريحة اجتماعية . انه ينجذب عفويا الى أي شكل مألوف . . وترعبه الوحوش .

ان الطفل يبقى فينا حارساً ومؤشراً على انسانيتنا وعلى ضعفنا البشري .

الشكل في (هذا الجانب من المدينة)

يقول الناقد ادوين موير^(٣) :

(افترض ان الأشكال الرئيسة للروايات الجيدة كلها : الروايات ذات الشكل المحدد والأخرى ذات الشكل الغامض وتلك التي تتقدم في غوص صارم والتي يبدو أنها لا تتطور أبدا) .

لقد كتب (عبدالأمير) عمله هذا ببساطة لا متناهية وبأسلوب (مضغوط نفسياً) أو بأسلوب (هادئ) إن جاز التعبير . هذا التطابق بين أحداث الرواية والأسلوب الذي انتقاه الروائي لنقلها إلينا يبدو طبيعياً جداً ونقطة في صالح العمل . لا شك في أن رواية (هذا الجانب . . .) تنتمي إلى الصنف الأول من الروايات حسب تصنيف (موير) ، أي إلى الروايات ذات الشكل المحدد . فعن طريق السرد وتنامي أحداث الرواية (مثلث سيد علوان - بوياس - فخرية) ومن خلال حوار تفادي فيه المؤلف مطبات الافتعال والتعقر استطاع أن يؤسس لروايته بناء تصاعدياً (تجربة بوياس الفاشلة في الدائرة) (مقتل سيد علوان) . وبذكاء القاص المحترف لم يغفل عبدالأمير جانباً تقنياً مهماً ألا وهو (التعليق) أو (التشويق) . لقد جعل القارئ يتساءل في أكثر من مكان ما الذي سيحدث بعد ذلك . ففي ليلة السفينة الراسية حين اتفق الثلاثة (الرجلان وفخرية) على السهر . كانت التساؤلات تتوالى : هل سيجدون السفينة حقاً ؟ ما الذي سيفعله (سيد علوان) تجاه فخرية ؟ وأقفل الفصل نهاية غير متوقعة أتركها للقارئ .

لا جدال في أن الروائي ، وهو يضع تصوراً لشكل الرواية التي يخطط لكتابتها ، إنما يضع خطوطاً عامة لهذا الشكل ، كي لا يحرم نفسه متعة اكتشاف تفاصيلها الفنية : تنامي الحدث فيها ، وظيفة الحوار ، ثراء اللغة فيها ، مصائر الشخصيات ومنحازها الفلسفي . إذن لكل رواية شكلها الخاص ومنهجها الخاص بها . صحيح أن هناك خطوطاً عامة ، إنما تظل قوانينها الخاصة بها غير مكتملة إلا بعد أن ينتهي المبدع من آخر سطر فيها .

المرأة في (هذا الجانب من المدينة)

المرأة في رواية (عبدالأمير) جزء آخر متحرك من تراب (العوينة) أو من أي تراب آخر في الأرض ، دنسته سنابك الرغبات ومرغته أقدام رجال بلا قلوب أو بقلوب علقت على مشاجب النسيان .

لم يقتصر (خضير عبدالأمير) باعتباره (رائيا واقعي الأبعاد) في تصويره على نموذج (فخريه) وحسب . . فهناك (وداد) التي يلتقيها (بوياس) في (سلمان باك) و (فكتوريا) أسيرة الشباك التي تأسر (سيد علوان) وتحطم وقاره جاعلة إياه يستعرض نزقه على دراجة بخارية قبالة البيت . و (زهور ياسين) المطربة المشهورة (الايام واضح ومقصود) وليالي الطرب المشبعة بنزف السكارى وشراسة (قبضايات) بغداد . و (ماري) بائعة الجسد المضطجعة بانتظار طوابير الرجال في مبعى الميدان الأيل الى الاندثار . و (سهام) الفتاة التي تحاول أن تجد لوضعها مستقرا وهي تحاول اقناع (بوياس) بالتوسط لدى أبيها كي يرضى بتزويجها من ثامر (الشاب الذي يعمل كاتبا للطابعة في البنك العثماني) .

وتبقى المرأة في الرواية انموذجا تلطخه شهوات الرجال وأحلامهم . وليت الرواية سلطت الضوء على نموذج المرأة المنسية في البيت : الأم التي تكافح في صمت ، والأخت التي تكتم الصبوات والعانس التي اتخذت من الكذب مهنة . أعتقد أن الرواية باعتبارها بناء شامخا لقادرة على استيعاب أكبر عدد من النماذج البشرية . واختياري للنماذج الأخيرة ليس المقصود منه استحضار الأفضلية الأخلاقية ، فكل الوجوه النسائية ضحايا لواقع فظ ، إنما المقصود ملء الفراغات واعطاء صورة أشمل لواقع ثر .

اللغة والحوار

رغم أن هذين العنصرين يسهمان في اغناء التفاصيل التي يرويها الكاتب ويعدان أقرب الى الجوانب الشكلية في العمل الأدبي ، إلا أن لهما دورهما في اغناء المشاهد الخارجية للرواية ، والداخلية أيضا (المونولوج) . عدا بعض الاخطاء اللغوية والمطبعة التي لا ينجو منها كاتب فان القاص الروائي (عبدالأمير) صاحب أسلوب

موحد ولغة محايدة عموماً . لاحظ ، على سبيل المثال التعبير الجميل التالي حيث يصف بعض الفتيات العاملات في الدائرة الحكومية التي عمل فيها (بوياس) : « وهن بدورهن يتحركن ضمن محيط ضيق يبدو أضيق من سم الخياط » (٤) .

أما الحوار فقد جاء عفويًا هنا ، غنياً بالدلالات هناك . وأعان القاص على حبك أحداث روايته في نسيج طرزته اللغة ولونه الحوار . تبقى ملاحظة واحدة وهي أن القاص اختار في نصف الرواية الأول للحوار أن يكون بالعربية الوسطى أي العربية المطعمة بتعبيرات محلية . إلا أنه في النصف الثاني من الرواية لجأ إلى اللهجة العامية مما أوحى بحالة هي أقرب إلى النشاز . صحيح أن اللهجة البغدادية جاءت استكمالاً لصورة مجتمع بأبعاده البانورامية ولكنها تعد (احباطاً) لتوجه الكاتب في النصف الأول من الرواية حيث اعتمد اللغة الوسطى ، كما قلت . أما استخدامه للألفاظ ذات الطعم المحلي مثل (جايخانة ، دربونة ، علوة ، زورخانه) فلم أجد كقارئ غضاضة في استعمالها . ذلك أن جوهر العمل الأدبي هو التحدث عن القلب البشري في لحظات قوته وخفقانه وفي الرغبات التي تسري في الدماء .

هل انتهت الرواية حقاً بمقتل (سيد علوان) ؟ سئل (جوبو سكوي) مرة مثلما سئل (فان كوخ) : الحياة جميلة ؟ فأجاب : لا . الحياة مدورة !

هل تنطبق هذه العبارة على رواية خضير عبدالأمير ؟

هل كانت الرواية رصدًا لحياة مدورة ؟

أعتقد أن هذه الحقيقة تنطبق على كل رواية ناجحة . .

هوامش

- (١) انظر (هذا الجانب من المدينة) صفحة ٩ .
- (٢) مجلة الافلام - العدد الحادي عشر - ١٩٨٥ .
- (٣) (بناء الرواية) - ادوين موير - الدار المصرية للتأليف والترجمة ، طبعة ١٩٦٥ .
- (٤) (هذا الجانب من المدينة) صفحة ٩٨ .

حوار

مع الشاعر

محمد السرخيني

إعداد / عبدالرحمن بن زيدان

□ مفهومي للشعر يجمع بين عقلانية الأدوات وغنائية الدلالة .

□ الشحنة الدلالية هي التي تجعل نصاً يبدو تراثياً في الظاهر غير تراثي في حقيقته !
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

□ بإمكان الشعر أن يخدم قضايا الانسان إذا ما تنازل عن نخبويته .

□ هناك ضعف في الأدوات عند الشعراء والنقاد معاً .

□ القيم الثقافية في الماضي تصبح معاصرة حين يتبناها المعاصرون .

□ القطيعة المعرفية غير ممكنة على الاطلاق .

□ نحن في العالم الثالث نعيش تناقض التوزع بين شكل معاصر وجوهر ماضوي .

يمثل الدكتور محمد السرغيني وجهاً مميزاً في الابداع الشعري بالمغرب ، لأنه يعتبر من جيل التأسيس الذي وضع الشعر المغربي موضع التساؤل ، فحاول تجاوز القصيدة العمودية ، ليفجر عوالم رؤى مغايرة تستمد نسفها من واقع التجربة الجديدة ، ومن الصراع الثقافي الذي أفرز لنا أصواتاً جديدة عمقت وجود الابداع الشعري المغربي في خارطة الثقافة والنتاج العربي .

وحتى نقرب أكثر من جيل التأسيس ، وقضايا الثقافة في المغرب ، وأسئلة النقد الشعري كان هذا الحوار مع الشاعر محمد السرغيني .

دور جيل السبعينات

● لقد عشت مخاض القصيدة المغربية بعد الستينات ، كما عشت طموحها إلى تجاوز الايقاع الكلاسيكي لخلق وعي شعري جديد . إلى أي حد يمكن الحكم على تحقق هذا الطموح في ابداعكم الشعري . وما خصوصياته واختلافاته مع الشعارين المجاطي والكنوني ؟

— أعتقد أن الصواب أن يقال ساهتم بدل عشت ، لأن الهاجس الذي ألح على جيلي هو تحقيق قصيدة جديدة تتجاوز ما هو كائن من التعبير الشعري ، من أجل كشف واكتشاف قوانين جديدة للكتابة في هذا الجنس الأدبي . ان السكونية التي كانت تعاني منها القصيدة الكلاسية ، كانت حافزاً لنا على السير في طريق جديد . هذا الطريق كان يستغرق كل الأدوات الشعرية ، والايقاع أحدها .

ولعل أكبر ما حققه جيلي في هذا السبيل أنه شيئاً فشيئاً أخذ يصرف أنظار المغاربة عن جمالية القصيدة الكلاسية ، ويركزها على ما كنا نقوم به من تجاوزات قصد تحقيق الهدف الذي ألمعنا اليه سابقا . وهذا وحده كاف لأن يبرر وجود هذا الجيل وتحمله مسؤولياته وتبلور أهدافه تلك التي أعطت ما يسمى جيل السبعينات وما قبلها . ولقد انتهى دورنا حين تم لنا استقطاب جميع الذين يهتمون في المغرب بهذا الجنس الأدبي ، سواء كانوا مبدعين أو نقادا ، الشيء الذي تقهقر معه المنظور الكلاسي للكتابة الشعرية في المغرب تقهقرا يكاد يكون نهائيا .

يختلف عالمي الشعري عن المجاطي من حيث أنني أعقلن اليومي وأوظفه من أجل البحث عن سيرورة مستقبلية له ، وهكذا يتحول معي الى أداة تساعدني على الوصول الى الحضاري والى الكوني ، في حين أن غنائية المجاطي الجميلة ، لا تنزع عن هذا اليومي يوميته ، بل تأخذه كما هو وتوظفه من أجل أن يكون عنصرا غنائيا في الكتابة الشعرية ، ومن هنا كانت صور المجاطي مضيئة ولكن بدون أبعاد . أما الكنوني فلم أقرأ له إلا في مرحلته الرومانسية ، ولذلك ، فباستثناء التجديد الشكلي الذي أسهم في ارساء دعائمه لا أعلم ان كان ممكنا أن أقارن عقلنتي للكتابة الشعرية برومانسيته الغزلية . وان كنت أعترف أنه أحد ثلاثة أسسوا بناء القصيدة المعاصرة في المغرب .

● لقد ارتبطتم بعباءات الرابطة النقدية والشعرية ، وأذكر على الخصوص ميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران ، وبعدها خلقتم علاقة معرفية مع الابداع الغربي . هل يمكن أن نعتبر هذا من المكونات التي حددت مفهومكم للشعر ؟

— ان الارتباط الذي كان لي بالرابطة القلمية لم يكن من القوة بحيث يطغى علي ، ولكن الذي استرعى انتباهي في انتاج هذه الرابطة أن هاجسا واحدا كان يحكم تحركاتها ان في اطار الابداع وان في طريقة قراءته ، ذاك الهاجس ، كان في تصميمها على التجاوز ، على تجاوز ما هو كائن . ورغم أنها لم تستطع رسم معالم مستقبلية لهذا التجاوز ، أي أنها لم تضع خطة تحدد فيها مجال طموحها وحدوده ، فانها على الأقل ناوأت ما هو موجود وحاورته وساءلته وكشفت تناقضاته وبنّت على أنقاضها مشروع رؤية في الكتابة الشعرية لم تستطع كما قلت تحديد ملامحه . يضاف الى ذلك أن هذا الارتباط عمل فيه الجانب الرومانسي الذي كان أهم ما اكتشف في بدايات مراحل الغليان العربي .

وعن العلاقة المعرفية بالابداع الغربي ، ينبغي أن أنبه الى أنها سارت في خط مواز مع ارتباطي بالرابطة القلمية فلم تأت بعدها . وبعبارة أخرى ، كان هذا الارتباط مرجعا واحالة ، اذ عن طريقه اكتشفت الكتابة الشعرية الغربية ، وتم هذا الاكتشاف وأنا لازلت بعد في أول السلم من دراستي الثانوية . وفي هذا المجال ، ينبغي أن نذكر

أن الكتابة الشعرية الغربية ، لم تصلنا عبر الترجمة بصورة منسجمة ، بل كانت تلقى الينا في غير ضبط ولا توجيه ، فمن حيث تنتهي من قراءة البحيرة للامارتين بترجمة الزيات ، ربما وقع بين يديك ديوان من مثل أزهار الشر ، أو ربما أخذك الحلم الكاسح وأنت تتنعم بشعرية : هكذا تكلم زرادشت لنيثشه ، وبترجمة فيليكس فارس ، وفي الامكان أن تقرأ بعد ذلك قصيدة لكوولريدج ، أو مقطوعة لكالديرون . أقصد بهذا الى القول أن حركة ترجمة الشعر في الوطن العربي لم يكن يحكمها قانون التصنيف ولا ملمح الموامة كما يقول الأسنيون ، وانما كانت تتميز بالاعتباطية التي طالما ردها السيميولوجيون من أصحاب الدلالة . أما الاتصال بالابداع الغربي في شكل ممنهج منظم ، فقد تم بعدهذا الارتباط ، وتم بصفة مباشرة ، أي في قراءته بلغته الأم . في هذه الفترة بالذات ، كنت أطمح الى أن أعيد كتابة : أربعاء الرماد لايليوت بالعربية عوض ترجمتها ، كما كنت أريد فعل نفس الشيء بالنسبة الى « أنابار » لبيرس ، ومرثية سانشو ميخياس للوركا ، وكتاب الرجوع الى مسقط الرأس لسيزير ، وكتاب الساعات لريلكه ، (لم أنجز سوى اثنين ، هما أربعاء الرماد ومرثية لوركا) وقصدي بذلك أن أجعل القراء في المغرب يعرفون الاتجاهات التي تسير فيها كتابة القصيدة المطولة في الغرب : فمن حيث تكتب القصيدة الأولى الحضارة المادية بدم المسيح وعقلانية لغوية وسوريالية صورية ، تكتب الثانية وجهها رومانسيا جزء من هذه الحضارة هو الصراع في الوهم ، ذاك الذي يتجهجى الصراع في صيغته التجريدية ، أما الثالثة فهي النموذج الأمثل للكتابة الشعرية المقموعة ، تلك التي تحارب في واجهتين : واجهة الاعتراف بها ، وواجهة الدفاع عن حق الزنجي في الحياة . أما الرابعة فكانت نموذجاً لفهم غنائي للزمن لا كسلطة ولكن كوعاء لكل ما هو جميل .

الحقيقة أن ما ذكرته أعلاه وغيره ، ساهم في تكوين مفهومى للشعر . وأقصد بغيره ما كان ذا علاقة بالماضي كالنصوف في أوسع معانيه ، وما كان ذا علاقة بالترسانة المعرفية المعاصرة ، كالأجناس الأدبية الأخرى وكالفنون التشكيلية (وخاصة منها التجريدية بكامل اتجاهاتها وتفرعاتها) والموسيقى الطليعية . (كجازنيو أورليانز والبوب ميوزيك) انك في كثير من الأحيان لا تدرك الاحالات ولا النصوص الغائبة ولا

عملية التناص في أغلب قصائدي ما لم تكن على اطلاع على مرجعيتي ، ومن هنا وقع أغلب الذين كتبوا عني في تأويلات أغلبها خاطيء ولا يقف على سند حقيقي .

ومن غريب الصدف أنني عثرت في قراءاتي عن الشعر على شاعر استطاع أن يقول في كتاب له عن الشعر كل ما أردت قوله تطبيقا لا تنظيرا ، وذلك من خلال ما أكتب . هذا الرجل هو صلاح ستيتية ، وكتابه هو : « أور في الشعر » . ان مفهومي للشعر يجمع بين عقلانية الأدوات وغنائية الدلالة وهاجسية الكتابة ، ولذلك ، فما يهمني من هذه الكتابة هو أن أكتب وأكتب وأكتب ، أما التصنيفات التي كثيرا ما تكون اعتباطية ، والتقييمات الايديولوجية والفهم المبسر السريع والتأطير المنبري والتهافت على موائد البدع الشعرية وتبني المناهج الجديدة بدون كبير فهم لها ، والتهافت على النشر والطباعة ، فذاك آخر ما أبه له . انني أحب الشعر حبا صوفيا ، وأكتبه بنفس الحب ، وأزهد زهدا حاسما في ما عدا هذه الكتابة . قد يقال أن هذا مفهوم محايد ، والحياد يلغي قانون الصراع الأبدي ، أو يؤجل الاعتراف به ، لكنني أقول أن الصراع بالمعنى الحقيقي ، بمعنى بناء الحقيقة المستقبلية لا وجود له في الساحة الابداعية المغربية . وما هو موجود لا يعدو أن يكون شكلا من أشكال الخصومة التي تنتهي حين يفني الطرفان الى رشدتهما ، والحالة أن الصراع ينتهي ان انتهى باقصاء عنصر ما كان لصالح عنصر ما سيكون ، وهذا ما لم يحدث لحد الآن في هذه الساحة .

الشاعر والناقد

● يقربكم الناقد المغربي نجيب العوفي من المنهج الشعري لدى ازرا باوند ، والى عالمه البوهيمي الحافل بغرابة المدلول وصعلكة الكلمة . كما يقربكم من عالم اليوت ، كيف ترون هذه القراءة النقدية ؟

— السيد نجيب العوفي واحد من هؤلاء الذين يتعجلون الأمور ولا ينظرون الى الكتابة الشعرية إلا بناء على قراءة آنية تلغي القبليات والبعديات . تلغي القبليات حين تنظر الى النص كما لو كان « مقطوعا من شجرة » ، وتوهم بهذه النظرة أنها بنيوية توليدية أو شكلائية تستمد مفاهيمها ابتداء من تروب الى لوتمان فباختين ، ولذلك ، فأحكامه

خاطئة مرتين : مرة في حقي ومرة في حق عالمي كل من ايليوت وباوند . ان هاجسي في الكتابة الشعرية منذ البداية ، كان همه التوصل الى لغة شعرية غير مستهلكة الى أسلوب شعري خاص ، وأعتقد أنه بسبب كل المراحل التي قطعتها في هذا السبيل ، تعرضت لهذا النوع من التحليل . أما عالم كل من الشاعرين السابقين الذكر ، فهو مختلف لدى أحدهما عن الآخر . فمن حيث كان العالم الباوندي عالم جنون ووعي بهذا الجنون ، كان عالم ايليوت مسيحيا متبرما ناقما . حاكم الأول نفسه عن طريق تقلبه بين الأيديولوجيات الفنية والسياسية ، ثم استكان الى جنونه اللغوي البوليكلوته ، ووفي الثاني دين المسيحية على حين أعلن في ايطاليا بمناسبة ندوة أقيمت عن الشاعر الايطالي دانتي : أنه دانتيّ الهوى حتى النخاع . لذلك ، فان العالمين معا لم يكونا في يوم من الأيام عالما لي ، على أساس أنني لم أعش تجربة الحرين العالميتين بالمعنى الذي عاشه باوند ، وأنني لا أعيش مشكلا حضاريا متمزقا يؤدي بي الى اعلان سقوط هذه الحضارة . أنا أنتمي الى بلد متخلف يجعل من هذه الحضارة المشتكى منها معياره الوحيد ووسيلته الوحيدة نحو الخروج من قوقعة التخلف . ولذلك فالبون شاسع بيني وبين الشاعرين . وانني أسأل ما هي المقاييس التي حكم بها السيد العوفي على صعلكة الكلمة ؟ لقد انتهى ذلك الزمن الذي كان النقاد فيه يفرقون بين لغة شعرية وأخرى غير شعرية ، وحل العصر الذي يتحدث فيه عن مكونات الخطاب الشعري ، هذه المكونات التي تخضع للأدوات الاجرائية الشكلية اللغوية ، وفي هذا المجال ، لا تختلف لفظة عن لفظة أخرى ، لأن الحس المعاصر حطم الحاجز الذي كان يفصل ما بين الجميل والقبيح ، بل اكتشف جمالية القبح . ان هذا النوع من الحكم المبترس ، لمن شأنه أن يسيء بالدرجة الأولى الى الذين صدر في حقهم ، قبل أن يسيء الى الذين أصدروه .

اللغة التراثية

● عند قراءتنا لنصوصكم الشعرية ، نجد أن اللغة التراثية حاضرة فيها بشكل مكثف ، تهندس القصيدة كي تعطيها بعدها الجمالي والمعرفي . الى أي حد يمكن لهذه

اللغة أن تستوعب المواقف الفكرية والنفسية بكل تعقدها وغناها ؟

— كيف يمكن أن نحكم بالتراثية على مجموعة من الألفاظ وظفها التراث . ان القضية قضية اعادة التشكيل الدلالي لهذه الألفاظ ، انها بعبارة أدق موظفة توظيفاً جديداً على أن تبقى لها من الماضي صيغتها الاحالية . ولذلك ، لا يكفي انتساب اللفظة الى استعمال ماضوي كي تكون تراثية ، وإلا ففي هذا المجال يعتبر المتن اللغوي كله تراثياً ، اذ ما من لفظة (باستثناء المكتشفات اللغوية المستعارة من اللغات المهيمنة) إلا ولها موقعها التراثي ، فنحن الآن نستعمل نفس القاموس الذي استعمل في الماضي . ان الشحنة الدلالية هي التي تجعل مما يبدو تراثياً في ظاهر الأمر غير تراثي في حقيقته . ان لويس أراغون عبر بنفس لغة الرمزيين الفرنسيين عن أحلام الفرنسي المتطلع الى تأسيس حضارة العمال . كذلك شأن ايليوت الذي تحدث عن اليومي والمباشر من خلال لغة أغلبها ماضوي ، ونفس الشيء يقال بالنسبة الى الشاعر الأسباني اليساري رفايل البيري الذي كان الوريث الشرعي للتقاليد الشعرية التي أرسى دعائمها لويس دي غونغورا .

إننا إذا ألغينا القيمة التعبيرية للفظـة تراثية ، فإننا نلغي في نفس الوقت امكان حشدـها بطاقات دلالية معاصرة ، وهذا ضد منطق اللغة بجميع الفهوم . اللغة واحدة متوحدة ، وإذا كان الأمر كذلك ، فالبقاء والبعث يتمان فيها وحتى للحوشي منها . ومعنى ذلك أنها مؤهلة للتعبير مهما تغيرت الظروف ومهما تنوعت المواقف ، اذ أنها بسبب من مرونتها وخضوعها لقانون الاستعمال ، تنتقل بانتقال المتكلم بها من بنية اقتصادية واجتماعية سفلى الى بنية اقتصادية واجتماعية عليا . غير أنها في هذه الحالة ، لا تعبر الا ارتكازا على شحنات دلالية جديدة . وهذا نفس ما أفعله مع ما أسميته باللغة التراثية .

بقي علي أن أقول ان القاموس الشعري العربي المعاصر ، هو من الضيق بحيث لا يتسع للتعبير عن هذه المضامين المعاصرة ، وعليه ، فبما أن هؤلاء الشعراء ، لا يتوسلون الى التعبير باللغة التراثية ، فهم يسقطون فيها يسميه الألسنيون ممن يحللون

الخطاب الشعري تردادا وهو ما يلاحظ بالفعل لديهم . هكذا اذن تبقى الاشكالية قائمة : الهروب من اللغة التراثية يؤدي الى الوقوع في شرك الترداد .

الشعر والمسرح

● لقد سبق وأن كتبتم مسرحيتين شعريتين ، هما : « الصراصير » و « التابوت والسكينة » . لماذا تخلصتم عن الكتابة في هذا الجنس الأدبي ، واستمررتهم مرتبطين بعالم الشعر لا غير ، هل كان ذلك لأسباب فنية وجمالية ، أم أن هناك عوامل أخرى ؟

— بالفعل ، فاني كتبت المسرحيتين ، وكنت مدفوعا الى ذلك بالرغبة في التجريب . الى أي حد يستطيع الانسان أن يطوع أقنومين تعبيريين يقف كل واحد منهما في الطرف الآخر من الآخر . كنت في البداية غير مهتم لما بين الأقنومين من التنافر ، لأنني أردت أن تستغرقني التجربة بحيث أسبر غورها . وحين أعدت قراءة المسرحيتين ، تبين لي أنني كتبت قصيدة مطولة اعتمدت من جملة ما اعتمدت عليه على الحوار ، وكان أن اكتشفت أن ملامح التمسرح فيها ضعيفة ، لأنني لم أستطع أن أفرط في مكونات الخطاب الشعري فيها . فأعدت صياغتها على أساس أنها قصائد وليست مسرحيات . وكان أن اكتشفت أيضا أن كتابة مسرحية شعرية إما أن يضحي فيها بالشعرية فتكتب على طريقة الكلاسيين الفرنسيين ، أي يأخذ فيها الحوار صبغة شحنة خطابية ويتحول الى نوع من الغنائية التي تذكر بالعصر الفروسي . لقد تخلت عن الكتابة الشعرية في هذا الجنس الأدبي ، لأنني لم أستطع التفریط في الشعرية التي هي هاجسي الأول والأخير .

مهمة الشعر

● لقد كان الخطاب الشعري في قصيدة ما قبل الاستقلال نضاليا له علاقة جدلية بالظروف التاريخية للمغرب . أما اليوم ، فاننا نجد تغييرا جوهريا في طبيعة هذا الخطاب ووظيفته ، سيما وأن تجربة الشعراء الشباب تنطلق من تكريس الخطاب الشعري لخدمة الانسان على اعتبار كونه وعيا ايديولوجيا . فكيف تحدّدون أنتم مهمة

الشعر ، أهي أخلاقية أم دينية أم سياسية ؟

— عانت قصيدة ما بعد الاستقلال من سلطة الالتزام الماركسي والمارتري في آن واحد ، فتحولت في غالب الأحيان الى بيان سياسي يفتقد أهم مكونات الفعل الشعري . وكان أن تحلى الشعراء بذلك عن الموضوعي في الذاتي ، الشيء الذي جعلهم يسقطون في تسطيح المفهوم الشعري وسلبه مقوماته التي بدونها لا يكون شعرا . وحين خبا لهيب هذا الالتزام ، رجع هؤلاء الشعراء الى الموضوعي في الذاتي ، وأخذوا شيئا فشيئا يقتربون من الفعل الشعري . ومن العجيب جدا أن بعض الذين كانوا يكتبون القصيدة/ البيان ، تحولوا في الشرق العربي الى رومانسيين مع مسحة تجديد طفيفة . وقع نفس الشيء في فرنسا في السبعينات حين ظهر أمر الفلاسفة الجدد والرومانسيين الجدد الذين أخذوا يشككون في جدلية الفكر الماركسي المعاصر ، انطلاقا من مقولات ماضوية . ان ما أسميته تغيرا جوهريا في طبيعة ووظيفة الخطاب الشعري ، أسميه أنا عودة الى حقيقة الشعر ، عودة الى التعبير بالمعاني الثواني كما يقول الجرجاني . ان المجاز والاستعارة والكناية هي العالم الفسيح حيث يرتع الشعر ، وهو عالم له خصوصياته ، أي أنه محكوم بقوانين غير القوانين التي تتحكم في أنواع الخطاب الأخرى .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ان تجربة الشعراء الشباب في المغرب ، اذ تحيل على نص غائب يساري في الغالب ، فانها في نفس الوقت تحيل على تبعية غير مشروطة لمجموعة من النصوص الغائبة أصحابها هم من يسمون عادة بالرواد ، ولذلك ، فهناك عكس تجربة عاشها غيرهم ، لا عيش تجربة عاشوها بأنفسهم .

في امكان الشعر أن يخدم قضايا الانسان اذا تنازل عن نخبويته وعن خصوصية الفعل الشعري فيه وتبني مكونات الخطاب اليومي المنطوق غير المكتوب ، وفيما عدا ذلك ، يبقى الشعر ذلك العالم الغامض الذي يجب لذاته دون أن تعرف دواعي الميل الى حبه هذا . وهنا يلعب دورا ثانوي الأهمية في تعميق الشعور لدى الانسان بكيونوته في ذاته ، وبكيونوته في جماعته ، بصيرورته في ذاته ، وبصيرورته في جماعته . هذه هي المهمة التي له ، وهذه هي المهمة التي يبقى معها فعلا شعريا .

الخريطة الشعرية في المغرب

● تأسيسا على هذه المعطيات ، كيف تحددون تضاريس الخريطة الشعرية بالمغرب . ما هي الاضافات وما هي الهنات وما هي المآخذ ؟ سيما وأن الحرية التي يدعو اليها بعض الشعراء في التصرف في الأوزان والقوافي التقليدية قد فتحت المجال أمام الأدعياء .

— الخريطة الشعرية في المغرب المعاصر ، ترسم ثلاثة أجيال ، مع العلم أن الجيل هنا لا استعمله إلا مجازاً ، وإلا فيعني لدى ابن خلدون أربعين سنة على الأقل ، الجيل جماعة تتخذ من سلوك شعري خاص طريقها الى فهم العالم والاندماج فيه ، وهذا يعني أن هذه الحقبة تتحارب فيها جميع هذه الأجيال : هناك الذين أسسوا ، وهناك الذين ساروا على طريق المؤسسين شبه المعبد ، وهناك من يسمون أنفسهم بجيل السبعين الأولين ، مهدوا لثبيت التقاليد الجديدة ، وكانت خطواتهم تتأرجح بين التعثر وبين التصميم ، لكنهم يمتازون بتكوين أكاديمي مزدوج . أما الذين ساروا على دربهم ، فأجمل ما فيهم هوسهم بالشعر ، وأقبح ما فيهم ضعف الأدوات ، أما جيل السبعين فهو جيل الارتقاء في أحضان التجريب غير الفاعل ، انه يدعو الى قطيعة مع الجيلين الآخرين أما عن عنجهية لا مبررة ، وأما عن عدم اعتراف بفعل السابق في اللاحق . وفي كلتا الحالتين ، لا يعمل هذا الجيل على ضبط أدواته وتوظيفها لصالح الفعل الشعري الناجز .

ربما كانت الاضافة في الكم لا في الكيف ، والا فكيف تفسر تلك الكراسات التي تنشر على أنها دواوين شعر ؟ كيف تفسر تعمد الأيديولوجي (سواء يمينا أو يسارا) وتعمد اظهاره من خلال صور شعرية متبناة وليست وليدة القريحة . ان ما يؤخذ على هؤلاء وأولئك من هنات يرجع في أساسه الى ضعف الأدوات ، وهو شيء يلاحظ لدى الجيلين من الشعراء والنقاد على السواء .

ان الأدعياء موجودون مع القصيدة القديمة ومع المعاصرة ، الأولون نظامون والآخرين متشاعرون . ليس في الشعر ما يمكن أن يكون سهلا ، وسواء مع النظام

السيمتري الصارم القديم أم مع النظام التفعيلي أم مع التخلص من القيود أيا كان نوعها . أن له قوانينه الداخلية التي تحكمه ، وهذه القوانين قلما يهتدي إليها أغلب الذين يكتبون الشعر . انها تكاد أن تتحول الى طقوس لدى من يملكه هوس الشعر ، بل انها قداسه وقرايبه ونذوره . ولو كان المجال يسمح بمزيد من التوضيح لقلت الكثير في هذا الباب . وعلى كل حال ، فان الأنساق المعيارية لا تلعب في الشعر إلا دوراً ثانوياً ، ويبقى أن الفعل الأكبر فيه هو الاحاطة بعالمه ومعرفة المدى الذي يمتد اليه نفوذه ، والمدى الذي يجب أن ينحسر فيه ويتقلص ، والمدى الذي يجب أن يكون فيه التعبير لمحا أو رامزا أو مفوضا أو ايجاء أو مباشرا .

القطيعة والتجديد

● نجد التجديد عند الشعراء الشباب مرادفا لرفض القيم الثقافية واللغوية القديمة ، أي أنه بالنسبة اليهم أحداث قطيعة معرفية مع الماضي من أجل الارتباط بالمواقف الاجتماعية والسياسية ، وبما أنكم عايشت تجربة جيلين ، هل يمكن القول بوجود اختلاف نوعي في الأسلوب الشعري عند هذين الجيلين ، سيما وأن هناك نقادا يسمون الشعر الحديث بأنه أجنبي وشعوبي ومناقض لعقلية القارئ العربي ؟

— ان القيم الثقافية المأصولة تصبح معاصرة حين يتبنّاها المعاصرون ، لأنهم يلغونها بمعاصرتهم . يضاف هذا الى أن التأسيس لا بد وأن يتخذ له أرضية يقف عليها ، وإلا فلا يمكن أن تبنى القصور على الرمال . القطيعة المعرفية اذن غير ممكنة على الاطلاق ، وكل الذين يدعون أحداث هذه القطيعة ، ينتهون في الأخير الى الوقوع في ما هربوا منه . ان الأمثلة على هذا كثيرة ، فأدونيس الذي تبنى قبل هذا الوقت أفكار جماعة « تل كيل » الشعرية ، لم يجد حرجا في أن يحيل شعره على مواقف النفري . يبقى أن ذلك العذر الذي تبرر به القطيعة ، وهو الارتباط بالمواقف الاجتماعية والسياسية ، عذر غير مقبول ، لأننا في هذه الحالة لا نمارس قطيعة كلية ، وإنما نمارس القطيعة ضد الأدوات التي خيل لنا أنها لا تستجيب لمطامحنا الدلالية ، ان هذه القطيعة نوع من تطبيع ما لا يطبع ، وترويض ما لا يمكن أن يروض . هي تدجين غير موهوب .

وإذا اتفق على أن القطيعة غير قائمة ، فماذا حقق هؤلاء الذين يدعون إليها بما يعتبر تجاوزاً لمن سبقهم ؟ يبدو لي أن شيئاً من هذا التجاوز لم يقع ، وإنما الذي وقع أن جيل الشباب تملكه هوس التجريب فسار خلفه أحياناً وسار فيه أحياناً أخرى من غير أن يتيح لنفسه فرصة المعاودة والقراءة الواعية . إن الاختلاف الحاصل بين الجيلين ، لا يمس جوهر الكتابة الشعرية ولا رؤية العالم ، ولكن يمس الشكل كما يمس الجانب الأكثر شكلاً منه ، وعليه ، يكون الفرق بينهما هو الفرق الحاصل بين طول الممارسة والمران وبين العنفوان الذي يحتاج إلى الدربة والتطبيق .

إن ما اتهم به النقاد الجدد الشعر المعاصر من أنه أجنبي وشعوبي ومناقض لعقلية القارئ العربي يذكر بما كان النقاد القدامى يتهمون به الشعراء الذين خرجوا عن الخط السلطوي الذي رسموه لهم . صحيح أن إبداعاتنا الشعرية العربية المعاصرة تغترف من الفكر الغربي على العموم ، تغترف منه القوالب والمفاهيم والابتداعات وحتى الأدوات ، إلا أنه لا يمكننا أن ننفصل عن اللحظة الراهنة ، لأننا نمتصون إليها ومنتفعون بمكتشفاتها ومشروطون بها عن طريق قانون الثقافة . نفس الشيء عاشته الثقافة العربية حين وقفت منبهة أمام شكلائية الجدل الفلسفي اليوناني . ولذلك ، فمدلول كلمة الأجنبي تقلص الآن تقلصاً سيؤدي بها حتماً إلى الدخول إلى مقبرة التاريخ . انني حين أقرأ للشاعرين الفرنسيين جاك دي بان وأوجين غيوفيك ، وللشاعر الأسباني أوتورو ولحركة الشعر الأسود الناطق بالفرنسية أو بالإنجليزية أجد في كل ذلك نفسي ، كما أجد في المتنبي وأبي العلاء المعري . مشكلة الذين يطلقون هذا النوع من الاتهام أنهم مقولون في إطار ثقافة ماضوية لا تسمح لهم بالتفتح على الثقافات الأخرى . وأعني بالثقافة الماضوية تلك التي تريد الإبقاء على ما كان لا غير ، وإلا فإن ثقافتنا القديمة قد تفتحت على كثير من التيارات كغنوصية الفرس وحكمة الهند وماورائية اليونان . ومن هنا جاء اتهامهم هذا الشعر بالشعوبية وبمناقضته لعقلية القارئ العربي ، كأن من الشعوبية أن تحاول الخروج من قمم الذات إلى آفاق أرحب ، وكأن القارئ العربي لا بد أن يبقى سجين التقاليد الجمالية ذات البعد الأحادي . هي اتهامات تطلق وترسل إرسالاً من غير أن تعرف مدلولاتها ، ولذلك

فهي هراء من القول .

الشكل والجوهر

● يشعر المبدع العربي أنه يعيش تناقضا بين كونه داخل العالم الحديث بالشكل وخارجه بالجوهر . هذا الشعور يتخذ منحى صوفيا في قصائدكم ، نتمس منه معاناة قضايا مجتمع قديم في عالم حديث . ألا يمكن أن نعتبر في هذا ابراز شخصية شعرية جديدة ذات تجربة حديثة معاصرة ؟

— اننا نحن المنتمين الى العالم الثالث ، نعيش تناقضا بينا ، لأننا نتفق جميعا في أن لنا مواضع تجبرنا على الالتفات ونحن نسير ، ولأننا كذلك فنحن موزعون بين شكل معاصر وجوهر ماضوي . تلك اذن خاصية نحن مطبوعون بها وفي اطارها ولدنا كثيرا من المفاهيم كالتراث والأصالة والتفتح ، وكثيرا من المقولات كالقومي والأمني والاسلامي ، ولذلك فهذه الازدواجية قدرنا واطار لتفكيرنا الايديولوجي والابداعي . على أنها ليست شرا كلها ، اذ يكفيها من المزية أنها نبهتنا الى خصوصياتنا التي تميزنا عن الآخرين . اذا كان الأمر كذلك ، فسلوكي الشعري وأنا أنتمي الى بلد من بلاد العالم الثالث ، يعكس بالضبط واقعي العام ، وهو واقع يسيّر أماما ويلتفت خلفا .

يبقى أن المنحى الصوفي الذي يلاحظ في ابداعي هو شيء من هذا القبيل . فلماذا التصوف اذن ؟ لأن المتصوفة المسلمين وخاصة منهم المغالين كالحلاج ، أدركوا شيئين اثنين لم يدركهما غيرهم . هذان الشيئان هما افلاس اللغة المكتوبة/ المنطوقة ، وافلاس السلط التي تحكم العالم وفق أنساق متخلفة . . أفلست اللغة بالنسبة اليهم لأنها عجزت عن التعبير عن الألوهي بكل ما فيه من نورانية ، ولذلك التجأوا الى علم أسرار الحروف فأعطوا لهذه قيمتين عددية ورمزية ، وسموا ذلك سيمياء تذكرنا بالسيمولوجيا المشتقة من ألسنية فيرديناند دي سوسير . وأفلست السلط لأنها أهملت الروح بالمعنى المادي للكلمة ، أي أهملت نوازع الانسان وميوله وفطريته . ان التوظيف الصوفي لم يكن عبثا كما لم يكن تعمية وتقية ، ولكنه كان توظيفا واعيا يقصد به فتح آفاق

تعبيرية أخرى ، واطهار العلاقة الجدلية بين ماضي المتخلفين وحاضرهم . اذن فليست هناك معاناة قديمة تسقط على قضايا معاصرة ، وانما هناك معاناة معاصرة تسقط عليها قضايا ماضوية ، وهو أسلوب مألوف في الشعر وفي المسرح خاصة : (القصيدة المطولة : المسماة « جاكوب » للشاعر الفرنسي المسيحي المعاصر بيير ايمانويل ، وما فعله جان كوكتو مع أسطورة أورفينوس اليونانية) .

تبعية أم تجاوز ؟

● ما موقع التجربة الشعرية بالمغرب في خريطة الابداع الشعري العربي . هل هو موقع تبعية أم موقع تجاوز ؟

— لا أستطيع أن أرد على هذا السؤال مادام الحال غير واضح في المغرب وفي البلاد العربية . ويأتي عدم وضوحه من أن البدع الشعرية لا تأخذ لنفسها من الوقت ما يسمح لها بالتبلور ، بل انها ما تكاد تظهر حتى تختفي ، ظهرت الدعوة الى قصيدة الحدائث مع مجلة شعر ، وظهرت الدعوة الى القصيدة / التجاوز مع أدونيس ، وتحدثوا عن قصيدة النثر ، كما تحدثوا عن القصيدة / اللقطة ، ولكن كل ذلك لم يقطع من الزمن ما يكفيه لكي يعيش وينفجر ويفجر ولم يستمر حيا إلا ما أسميته القصيدة / اليومية مع سعدي يوسف .

وبما أن الأمر كذلك ، فمن الصعب تحديد موقع للشعر في المغرب في خريطة الابداع العربي ، هذه الخريطة التي لا تزال ملامحها مضببة ، لكثرة الدعوات التي نسمع عنها ولا تمكث بيننا الا قليلا . على أنه يمكن القول أننا كما نلاحظ التبعية اللا مشروطة الواضحة في شعر جيل السبعين لاتجاه أدونيسي ، فاننا نسجل أن هناك وعيا بالذات ومحاولة لتجاوز التبعية . وبما أن الجيل الأول متمكن من أدواته ، فقد استطاع أن يتخلص من هذه التبعية وعلى الأقل في الأعمال الأخيرة التي أنجزها .

● النقد الشعري ما له وما عليه ، خصوصا اذا ما عرفنا أن هناك توجهنا نحو تأسيس جهاز مفاهيمي نقدي يستفيد من المناهج الغربية طريقة لقراءة الابداع

الشعري العربي .

— يمكن القول أن نقد الشعر في المغرب متخلف عن الكتابة الشعرية ، انه لحد الآن يقف عند حدود حكم القيمة رغم ادعائه اصطناع المناهج النقدية المعاصرة ، لأنه لا زال لم يتمثلها بعد . كل ما يفعله في أحسن الأحوال أنه يشرح النص الشعري بخطاب نثري يسمح فيه لنفسه بالتأويل والتزديد والاستنتاج . وهذا لا يعكس إلا نقصاً مريعاً في الأداة قديمها وحديثها .

ان ما أخذنا نقرأه حالياً لمجموعة قليلة من الذين انتدبوا أنفسهم لتحليل العمل الأدبي تحليلاً حيادياً قائماً على اصطناع مناهج الألسنية من تحليل بنيوي توليدي ، ومن تحليل للخطاب ، ومن تحليل سيميولوجي أو سيميوتيقي ، لشيء يرهص بقيام حركة ستعوض عن الفراغ الذي نشعر به بسبب خلو الساحة من النقد الحقيقي ولذلك ، فتحليل يعني العيد لبعض الأعمال الشعرية ، وما قام به كمال خير بك بالنسبة الى الشعر العربي المعاصر ، يجعلني لا أفقد الثقة في هذا الجيل النقدي . أما العمل الذي قام به محمد بنيس من تحليل بنيوي توليدي للشعر المغربي ، فهو من الأخطاء ومن التعسف بحيث لا بد من مراجعته من الأساس .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>